الرَّاقِصَةُ وَالزَّبَّال

مجموعة قصصية

عصام قابيل

٢٠١٧

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى
سماح الجمال

المدير الفني
أحمد جابر

تصميم الغلاف
أحمد صادق

التصميم الداخلى
وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2016 - 5885
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 51 - 5

إهداء

إلى أمي رحمة الله عليها.. ما أعظمك وأكرمك يا أمي.. اللهم اغفر لها وارحمها..

إلى خالي العظيم.. المربي الفاضل الشيخ علي عبد المجيد المنجي؛ لما له علي من فضل.. سأعيش أسيرًا له طيلة حياتي..

إلى أختي الكبيرة رحمة الله عليها السيدة/ إلهام عبد الحميد غزال، وما لها من أياد علي..

إلى رفقاء الدرب وأصدقائي وكل من آزرني وساندني..

أهديكم جميعًا هذا العمل الذي أرجو منه النفع..

عصام قابيل

الفنى والمقدس
فى أدب عصام قابيل

عصام قابيل.... أديب صاحب طابع خاص، يخوض تجربة إبداعية ذات طابع شديد الخصوصية.

أول ما يلفت نظرك فى تجربته الإبداعية هو ذلك التداخل البيِّن بين ما هو أدبى وما هو دعوى، وأول ما يلفت نظرك فى شخصيته الأدبية هو ذلك المزج بين القاص والخطيب، بين الروائى والداعية.

لا تندهش إذا حضرت إحدى الندوات والأمسيات، وقدمه مدير الندوة كقاص، فخرج دون ورقة فى يده، وكأنه يحفظ قصته عن ظهر قلب، ثم لا تندهش إذا حضرت أمسية أخرى، وقدمه مديرها مجدداً ليقرأ قصته، فإذا به يقرأ القصة ذاتها ولكن بإيقاع كتابى جديد، فثمة كلمة مختلفة هنا، وثمة تعبير أعيد تشكيله هناك، وثمة تقديم هنا وتأخير هناك.

ليس لك أن تندهش فهذا دأبه، وهذه مهارته التى يتقنها تماماً، ولكن لك طبعاً أن تطرح على ذاتك عدداً من الأسئلة المشروعة التى تثيرها تجربة عصام قابيل هذه بخصوصيتها الفريدة:

هل يحفظ القاص الذى معنا قصصه فعلا كما يحفظ الشعراء قصائدهم؟ أم أنه يرتجلها ارتجالاً؟ أم يعيد كتابتها فى كل مرة يلقيها فيها على سامعيه؟

هل تظل فكرة قصته هى الأهم، وتبقى فصاحة لغته واستقامتها هى المقدمة على كل ما سواها من تقنيات الكتابة القصصية، بحيث يعتمد على هذه اللغة المستقيمة الفصيحة فى التعبير عن فكرته الساطعة فى ذهنه سطوعاً بيناً، والتى كان قد أعد لها ما يشبه "الحبكة" القصصية مسبقاً ثم ترك للسانه الفصيح أن يبتكر فى كل مرة البناء القصصى الذى تمنحه إياه اللحظة بطبيعتها المختلفة ومستمعيها المختلفين؟

هل يقطع المسافة ذهاباً وعودة ما بين القاص والخطيب أثناء إلقائه لقصته، أو بالأحرى إعادته كتابتها من جديد، بحيث يحضر هذا مرة، وذاك مرة، ويحضران معاً أو يتصارعان من أجل الحضور مرات ومرات؟

إذا كنت مثلى ممن يعتقدون أن تداخل الأيديولوجى والدعوى بالفنى يمكن أن يمثل خطراً حقيقياً على الإبداع، وأن الحضور الحقيقى للأيدولوجى ينبغى أن يبقى هناك، فى قاع وعى الكاتب،

وفى عمق ذاته وتجربته، حتى لا يحيل العمل إلى لون من الخطابية الزاعقة، أو يوقعه فى فخ المباشرة وشرك اليقين القاتل، أقول إذا كنت مثلى من هؤلاء، فإن عليك أن تقرأ عصام قابيل فى قصصه ورواياته لتعيد مناقشة هذا الاعتقاد من جديد.

هذا قاص نذر تجربته الإبداعية من أجل الرسالة التى يسعى إلى إيصالها، فالفكرة عنده مقدمة على كل ما سواها، والمعنى عنده يتقدم على كل ما عداه، والغاية عنده تفوق الوسيلة بصورة لا مراء فيها.

لكن هل يعنى هذا أن ما يقدمه عصام قابيل يبتعد عن منطقة الإبداع الأدبى؟

لو كان الأمر بهذه البساطة لما كتبت أنا هذه الكلمات ولما قرأتها أنت، ولقلنا إنه خطيب مفوه يملك خصائص إبداعية تزيد خطابته تأثيراً، وكفى.

لكن الحقيقة أن ما يقدمه عصام قابيل فى ميدان القصة القصيرة هو أدب بمعيار الأدب، وهو قص بمعايير القص، ولنا بعد ذلك أن نتساءل عن مساحة الدعوية أو الخطابية فى هذا العمل الأدبى، ولكن بعد أن نثبت بداءة أننا أمام عمل أدبى حقيقى، وما

أظن أن عصام قابيل سيؤرقه كثيراً أن نكتشف أن المعنى والرسالة والغاية فى أعماله أسطع من كل ما سواها، فهو كما قلت لك قد نذر تجربته لذلك.

السؤال الآن: لماذا نتحدث عن القصة القصيرة عند عصام قابيل ونحن بإزاء عمل روائى؟

والإجابة البسيطة الواضحة تتمثل فى أن القصة القصيرة تكون أكثر اشتباهاً مع الرقائق الإيمانية التى يستخدمها الخطباء فى خطبهم لمنحها قدرة أعلى على التأثير فى مشاعر مستمعيهم ووجدانهم، فإذا ما حررنا موقف القصة عند عصام قابيل وعرفنا موقعها بين الفنى والدعوى، وأيقنا أنها من حيث المبدأ هى قصة قصيرة حقاً، وإن طغت فيها الفكرة والرسالة والغاية واللغة على ما عداها، أصبح الأمر أيسر بالنسبة إلى تحرير مكان الرواية عنده وتحديد موقعها، لأن الرواية أبعد عن الاشتباه مع رقائق الخطبة أو ما شابهها من كتابات دعوية خالصة.

هل نحن بحاجة إلى أن نتذكر أعمالاً كثيرة استظلت بالظل المقدس لا سيما فى الرواية الإسلامية عند طه حسين أو أحمد أمين أو جورجى زيدان أو غيرهم من الأدباء الذين لم يمنعهم الاقتراب

من المقدس الدينى من أن يقدموا أعمالاً روائية مهمة؟

صحيح أن عصام قابيل يخطو خطوات أكثر فى الاقترب من المقدس حين يجعل روايته مستظلة دائماً بالنص القرآنى الكريم، وصحيح أنه يقيد خياله الذاتى بقيود أخلاقية وإيمانية ودينية أكثر، لكنه فى كل الأحوال يقدم لك عملاً روائياً يثير لديك العديد من الرؤى الجديدة ويدعوك لأن تختار معه نقاطاً جديدة وزوايا جديدة لرؤية الأحداث التى طالما رأيتها من قبل من زاوية واحدة فقط.

السيد حسن
الشاعر والإعلامى

وداع في الإسكندرية

أخذ يمسح وجهه من رذاذ المطر وهو يشرئب بعنقه؛ يطيل النظر لعله يلمحها، لكن دون جدوى..

مر الليل ثقيلًا والظنون تقتله، وأذناه تتعلق بكل صوت يسمعه لعلها هي؛ قد رجعت لتسعده.. كل يوم على هذا الحال حتى يئس ذات يوم؛ فقرر العودة متعجلًا، وعبر الطريق وهو يتلفت خشية أن تأتي ولا يراها، وإذا بيدين تلوحان من بعيد!!

عادت دقات قلبه إلى الحياة، وسرى الدم في العروق بعدما حسب أنه الموت بغيابها.. رفع يديه بكل قوة وهو يصرخ: "أين أنت حبيبتي؟ أين أنت؟" ولم يأبه بنظرات الناس إليه، وظنونهم أنه مُسَّ عقله بشيء..

ظل يجري كل منهما على جانبي الطريق.. تَحُول بينهما السيارات حتى توازيا، ودعتها لهفتها إلى العبور مسرعةً تواقةً، وكذلك هو..

قررا أن يلتقيا وسط الطريق والسيارات.. ومر الترام مسرعًا ففرقهما، ثم عادا؛ يرى كل منهما الآخر، وكان ...

لقد التقيا وتعانقا وأخذا يدوران من البهجة، ولكن لم يسعفهما القدر ...

سقطت أسلاك الترام عليهما فصُعِقَ الاثنان، فماتت وهو يردد: "لا تتركيني، يا ضحكتي؛ انتظرتك كثيرًا"، ثم أسلم روحه لله تعالى..

الجميلة والكبرياء

دخلت مسرعةً إلى البهو الكبير وسط صخب الحضور.. كلٌّ في هواه، والبنات تتراقص في وسط البهو، والباقيات يصفقن وقد علت ابتساماتهن على الوجوه، ولمحتُ أمال واقفةً في طرف الصف.. ذهبتُ إليها كي أهنئها بخطوبة أختها شهد.. سلمت عليها ثم بادرتُ بالسلام على من تقف بجوارها..

ولم أصدق نفسي حينما وقع نظري عليها..

"مستحيل" ...

"مستحيل" ...

"مستحيل هذا الجمال الأخاذ! وجه أبيض مستدير كالبدر.. عيون خضراء كأنها زرع بهي.. شفاه حمراء رغم أنها لا تضع مكياجًا.. لم أرى في جمالها قط!"..

ومددت يدي لأصافحها وأنا في غمرة زهوي، لكنها تجاهلتني تمامًا وهي تنظر إلي، ثم استدارت بوجهها..

أصابني حرج شديد واحمر وجهي بشدة، ولم أتمالك نفسي.. أجهشت بالبكاء، ثم استدرت مسرعةً خارج البهو، ولم أدر في

هذه اللحظة: هل انتبه بقيتهن لما حدث؟ أم لا؟ هل لهذا الحد هي مغرورة؟ ألهذه الدرجة تحتقرني لأنها جميلة؟

لمحتني السيدة فريال وأنا أسرع في خطواتي حتى لا يراني مزيد من الناس ونادتني.. تسمرت قدماي فلم أكن لأضيع هيبتها، وأستهتر بندائها..

سألتني:

– في إيه يا فاتن؟

قلت ودموعي تغلبني:

– أبدًا يا مدام فريال، مفيش..

قالت:

– مستحيل! تعالي.. قوليلي إيه اللي حصل؟ وليه كل الدموع دي؟

قلت وأنا أتنهد:

– بسلم على أمال وبهنيها، وبعدين جيت أسلم على إلى جنبها.. اتعاملت معايا بمنتهى الكبر.. مش معقولة علشان هي بالجمال ده تتكبر علي، وتكسفني وسط الناس..

ثم غلبني البكاء مرةً أخرى..

قالت، وهي تجذبني من يدي:

– تعالي وريهالي مين دي!

قلت وأنا أحاول التخلص منها:

– لا أريد إحراجًا أكثر من هذا.. (هكذا قلت في نفسي)..

لكنها صممت، ولم أجد بدًّا من اتباعها.. ثم أشرت لها على تلك المغرورة، وأنا لا أريد أن أنظر إليها..

قالت وهي تمسك بها:

– سحر؟ مش ممكن؟

ابتسمت سحر وهي تربت على يد مدام فريال؛ والتي انسحبت وهي تجرني بعيدًا، ثم همست في أذني:

– دي كفيفة يا فاتن، حرام عليك!

تمثال برديسي

وضع برديسي - الابن الوحيد لأمه - تحت إبطه شيئًا ملفوفًا في العدد الثلاثين من يونيه من جريدة أخبار السياسة، ثم مد رقبته ودخل إلى عيادة الدكتور فهمي؛ الذي صاح عندما رآه:

- حسنًا يا صغيري.. بم تشعر الآن؟ أية أخبار طيبة تحملها؟

أغمض برديسي عينيه، ووضع يده على صدره، وقال بصوت خفيض:

- أمي تبعث إليك بتحياتها. وقد كلفتني أن أشكرك - أنا الابن الوحيد لها - لقد أنقذت حياتي يا دكتور.. شفيتني من مرض خطير. ونحن - الاثنان - لا نعرف كيف نعبر لك عن امتناننا؟!

قاطعه الطبيب:

- لا تتحدث عن هذا يا صغيري.

استمر برديسي:

- إنني الابن الوحيد لأمي، ونحن فقراء. وبالتأكيد؛ في حالة لا تسمح لنا بأن ندفع ثمن العلاج. وهذا يمزقنا يا دكتور.. ومع

ذلك، فإن أمي وأنا - الابن الوحيد لها - نتوسل إليك أن تقبل - كرمز لعرفاننا بالجميل - هذه الهدية القيمة، من البرونز القديم.. هذا العمل الفني الرائع!

احتج الدكتور:

- إنك مخطئ تمامًا.. على أي شيء كل هذا؟!

- كلا.. لو سمحت.. لا ترفض (وفتح برديسي اللفة) فإن رفضك يؤلمنا، أمي وأنا.. فهذا شيء جميل من البرونز القديم.. لقد أحضره إلينا أبي رحمه الله منذ زمن، ونحن نحتفظ به كذكرى عزيزة. كان أبي يشتري البرونز القديم، ثم يبيعه للهواة.. والآن نحن نواصل هذه التجارة البسيطة: أمي وأنا..

ثم رفع برديسي الهدية ووضعها على مكتب الطبيب.. كانت عبارةً عن كرسي كبير من البرونز القديم مصنوع بمهارة، ومن القاعدة ينهض تمثال لامرأة عارية تمامًا، وفي وضع لا يمكن وصفه. أما الوجه؛ فكان يبتسم في خبث واضح، وملامح مفضوحة، وعلى نحو يظهر أنها غير قادرة على حمل الكرسي، وتطلب المساعدة، وأنها على وشك أن تقفز من القاعدة لكي تنطلق إلى الحجرة في رقصة عربيدة لا يمكن تخيلها!

وما كاد الدكتور يرى الهدية حتى حك أذنه من الخلف بهدوء ثم سعل، ومخط بدون حماسة، وغمغم قائلًا:

– أجل.. هذا في الواقع شيء جميل. لكن.. ماذا أقول.. إنه إباحي أكثر من اللازم.. إنه ليس عاريًا فقط.. بل أسوأ!!

– لأي سبب؟

– الشيطان نفسه لا يمكن أن يتخيل ما هو أكثر شناعةً من ذلك.. إن وضع مثل هذا الفحش فوق المكتب يدنس شقتي كلها!

قال برديسي مدافعًا:

– أي تصور غريب هذا الذي لديك عن الفن يا دكتور؟! إنه قطعة فنية. تأمله جيدًا. هذا الجمال، وتلك الأناقة تملأ النفس بالتقدير. إنه يأخذ اللب.. ونحن بتأملنا هذا الكمال الفني ننسى الأشياء الأرضية.. انظر أي حركة يصورها، وأي تعبير دقيق يكشف عنه!

قاطعه الدكتور:

– إنني أفهم كل هذا جيدًا يا صديقي، لكن لي أسرة وأطفال يلهون هنا، وتأتي لزيارتي سيدات محترمات..

– بدون شك! إذا أخذنا وجهة نظر الرجل العادي؛ فإن هذه

التحفة الفنية ستظهر من زاوية أخرى تمامًا.. لكن يا دكتور، ضع نفسك أعلى مستوى من الشخص العادي. ثم بالإضافة إلى ذلك، فإن رفضك الهدية سوف يؤلمنا كثيرًا. أمي وأنا - الابن الوحيد - ... لقد أنقذت حياتي! ونحن نقدم إليك أغلى ما عندنا. وما يؤسفني أكثر هو عدم وجود تمثال آخر يكون مع هذا التمثال زوجًا رائعًا!

- شكرًا يا عزيزي.. إنني شاكر لك من أعماقي. تحياتي إلى والدتك. ومع ذلك أرجو أن تقدر بنفسك.. إن أطفالي يلعبون هنا، وتأتي لزيارتي سيدات محترمات. وأخيرًا.. سوف أحتفظ به.. من المستحيل أن أشرح لك السبب.. الأسباب التي ...

- لا شيء يستحق الشرح. ضع التمثال هنا؛ قريبًا من فازة الزهور.. آه.. خسارة كبيرة ألا يكون هنا التمثال الآخر. كم أنا آسف لذلك! إلى اللقاء يا دكتور..

بعد رحيل برديسي، تأمل الدكتور التمثال طويلًا، وحك من جديد أذنه من الخلف، وفكر:

- "من المؤكد أنه تحفة فنية رائعة.. لكن من المؤسف أن أقذف به. ومستحيل أن أحتفظ به لدي. آه..

إنها مشكلة.. إنها مشكلة.. لمن أقدمه؟" (رددها الدكتور فهمي في نفسه)..

وبعد أن فكر طويلًا تذكر صديقه العزيز: القاضي شعلان؛ الذي قدم له خدمات قانونية عديدة، وساعده في تجاوز الكثير من العقبات باستخدام سلطته ونفوذه وقرر الدكتور:

– "هذا رائع! لأنه باعتباره صديقًا سيكون من الإحراج أن يقبل مني نقودًا على أتعابه، وعندئذ يصبح من اللائق أن أقدم له هذه الهدية. سوف أحمل له تلك التحفة الشيطانية، خاصةً وأنه أعزب ومتحرر"..

وبدون وعي، ارتدى الدكتور ملابسه، وأخذ التمثال، وذهب إلى القاضي شعلان. وعندما وجده صاح:

– مرحبًا يا صديقي الأثير. ها أنا ذا.. جئت أشكرك على خدماتك الجليلة لي. أنت لا تقبل النقود مني. حسنًا؛ اقبل إذن هذه التحفة. هاك أيها العزيز..

وما إن رأى القاضي التمثال حتى صاح بحماسة:

– أوه.. إنه مشهور!

ثم استغرق في الضحك قائلًا:

– هذا ما يحول قديسًا إلى ملعون! رائع! بديع! أين عثرت على تلك الجوهرة؟

ثم بعد أن عبر عن حماسته ألقى القاضي نظرة خوف ناحية الباب ثم اقترب من الدكتور قائلًا:

– فقط يا رفيقي؛ أرجوك أن تضع هديتك في مكان خفي فإنني لا أريد أن تراها أمي.

وهنا صاح الدكتور:

– لماذا؟

– لأنني أستقبل أمي هنا.. ثم.. ثم إن هذا مزعج بسبب الخادمة.

– كلا.. كلا.. سوف يكون هذا العمل مثيرًا تمامًا وتصرف رائع من جانبك. إنه تحفة. انظر هذه الحركة.. وهذا التعبير.

– كفانا جدالًا؛ فإنك تهينني.. ماذا لو رأته أمي.. لو كان له فقط بعض الملابس.. أو حتى ورقة عنب تستره! إنه مفضوح يا دكتور..

لكن الطبيب هز رأسه، واعتبرها موافقةً مشوبةً بالحذر من القاضي، وأسرع بالاختفاء من شقة شعلان، وكان سعيدًا بأنه قد تخلص من هديته، وعاد إلى منزله.

لكن القاضي عندما خلا لنفسه، وراح يفحص التمثال، ويتحسسه من جميع النواحي - على غرار ما فعل الطبيب - وفكر مليًّا:

- "ماذا يفعل بتلك الهدية؟ إنها في الواقع تحفة رائعة. ومن المؤسف التخلص منها. لكن الاحتفاظ بها مع ذلك غير لائق. ويعرضني للمسؤولية أمام أمي ومعاريفي..

جلس القاضي وقد أعياه التفكير على أريكة في الردهة وهو يرقب ذلك التمثال اللعين، ثم غلبه النعاس ولم يشعر، وغاب في سبات عميق، ولم يفق إلا على صوت آذان الفجر؛ والذي دائمًا ما يشعره بوخز الضمير.. كان يشعره دائمًا بأخطائه التي لم يستطع التوبة منها والرجوع عنها.. لكنه انتبه ونظره تجاه التمثال فلم يجده..

أصابه الرعب.. انتفض..

ظل يبحث عنه هنا وهناك لكن دون جدوى..

تُرى هل وقع في يد أمه؟ هل سرقته الخادمة؟ هذه ظاهرة غريبة! "لن أستطيع أن أسأل أمي".. سار بخطوات حذرة تجاه حجرة الخادمة..

وقف على بابها وقد وضع يده على مقبض الباب وإذا بيد على

كتفه.. أصابته رجفة شديدة وكاد يصرخ؛ لولا أن تذكر أمه ووضعه المحرج.. ولكنه تجمد مكانه حتى أنه لم يفكر في الاستدارة ليرى من وضع يده على كتفه.. كل هذا في لمح البصر، ولكنه اكتشف أنها تهيؤات.. ولكنها لحظات كانت كفيلةً بارتعاد مفاصله.. نظر إليها منصور نظرة غل ورسمت ملامحه ما ينبئ بشراسة وتحفز..

ارتعدت أوصالها من نظرته وتسمرت مكانها..

سألها بصوت أجش:

– أين التمثال؟

ردت بمنتهى الدهشة:

– أي تمثال سيدي؟

ارتفعت نبرة صوته وهو يتقدم نحوها خطوةً:

– أعصابي لن تحتمل التمثيل.. أين التمثال؟ لن أتركك إلا أن أراه أمامي..

اشتد خوفها وبدأت أسنانها تصطك وشفاها ترتعش.. لكنه لم يرحمها..

انهال عليها صفعًا وركلًا وقد بلغت ثورته ذروتها وهي تصرخ تحت وطأة الضرب المبرح..

فجأةً؛ دق جرس الباب.. أُسقِط في يده.. تركها وذهب ليفتح الباب.. ولم يكن مهيئًا لاستقبال أي أحد..

فتح الباب وإذا بجاره اللواء عشماوي.. ولم يدر ما الذي أتى به في هذه الساعة، ولكن سؤال عشماوي بلهفة عما يدور ويحدث، ووصول صوت الخادمة إلى الجيران كان كفيلًا أن يدرك بأبعاد الموقف..

لم يملك إلا أن يرحب بضيفه ويستقبله..

تردد قليلًا في سرد الحكاية التي أوصلته إلى ما سمع ورأى عشماوي، ولكنه لم يجد غضاضةً من الفضفضة..

سرد ما حدث منذ استقباله لصديقه الدكتور حتى اختفاء التمثال وشكه في الخادمة، وأشد ما ألم به موت أمه وهي تظن به أنه أتى إلى الخادمة بغرض غريزي، واستوقفه عشماوي قائلًا وهو يضحك ضحكةً عاليةً لا تتناسب مع كآبة الحدث..

– هل هي جميلة ومطمع سيادة المستشار لدرجة أنها تستميلك؟

اشتعل صدر منصور بهذا التهكم، ولكن لم يرد.. هل أخطأ بحكاية ما حدث؟

بادره عشماوي؛ وقد حاول رسم الجدية على ملامح وجهه:

– الحكاية بسيطة جدًّا معالي المستشار.. سأنتزع لك اعترافًا في أقل وقت ممكن..

نظر إليه منصور وقد فغر فاه.. ثم أردف قائلًا:

– ممكن معالي الباشا؟

رد عشماوي وهو يضحك مستهزئًا:

– طبعًا سعادة المستشار.. كل ما عليك أن تأتيني بوصف كامل، أو صورة للتمثال، ثم تسلمها للقسم، واترك الباقي لي..

وبسرعة كان منصور يشحن زهرة في سيارته متوجهًا بها لقسم الشرطة.. وهناك وجد من يستقبله، وكأنه يعرف الموضوع برمته.. سلمها ثم عاد أدراجه لمنزله وهو يشعر بالسعادة..

إنه يريد هذا التمثال بأي شكل.. أما عن عشماوي فقد أشرف بنفسه على التحقيق الغير رسمي على زهرة، ولم يخف إعجابه بها...

وتحت ستار التهديد بأن تعترف اغتصبها وهي تولول بين يديه، ولم يمنعه هذا بعد ذلك من تعذيبها ولم يكتف بذلك، بل قبض على أهلها وزجهم معها في قضية واحدة، وظل يعذبهم حتى أنهم من

شدة التعذيب اعترفوا زورًا أنهم سرقوا التمثال وباعوه لتاجر تحف في التحرير..

لم يسلموا حتى بعد هذا الاعتراف الذي سُجِّل بالصوت والصورة، وظلوا يُعَذبون حتى فاضت أرواحهم كلهم، وبقيت زهرة مضرجةً في دمائها بين الحياة والموت..

بسرعة البرق قاد عشماوي حملةً على تجار التحف في التحرير، ولم يلبث إلا قليلًا حتى جاء بالتمثال، واتصل على منصور وبلغه أنه سيقيم حفلةً على شرف هذا التمثال، ويدعو إليه جميع الأصدقاء من كبار القوم والفنانين والنخبة..

لم يملك منصور إلا أن يوافق؛ طاغيةً فرحته بالحصول على التمثال مرةً أخرى..

توافد الحضور على نادي الشرطة في حديقة النادي؛ التي تزينت بالورود والمصابيح المتوهجة، وتعالت الضحكات والأغاني الصاخبة، والتف عدد غير كبير منهم - وخاصةً من النساء اللواتي لم يسترن من أجسادهن قدر ما كشفن - حول عشماوي؛ الذي راح يلقي كلمةً؛ يحتفي فيها بالتمثال وقيمته وانبهاره به وحسده لمنصور

على اقتناء هذه التحفة النادرة؛ والتي تُقَدَّر بالملايين، ثم استدعى منصور ليقدمه للناس..

تقدم منصور وسط الجموع، وجنح ناحية التمثال الذي لم يستطع رؤيته من شدة التزاحم عليه، وسرعان ما أفسحوا له.. وقعت عيناه على التمثال، وكأن صاعقةً أصابته وهو يردد: "ما هذا؟ ما هذا؟"

ثم ذهب إلى عشماوي وسحبه من يده على جانب الحديقة، وقال له:

– عشماوي باشا؛ ليس هذا هو التمثال!

السياسي والسروال

في بغداد – تلك المدينة الكبيرة والجميلة – كان يعيش عفت..

عندما كان يلهو تحت قدمي أمه كانت تناديه: "عفت السعيد"..

ثم كبر وصار شابًّا جميلًا وذكيًّا وغنيًّا.. غنيًّا جدًّا. واشتغل بالسياسة؛ يغوص في دروبها ويعشق نتائجها..

ولم يكن شيء ينقصه، والفتيات يتهافتن عليه ويرتمين عليه. ومع ذلك فقد قرر ذات يوم أن يتزوج.

وما إن قال حتى فعل.. وخطب أجمل فتاة في المدينة.. كانت ... كانت ... كلا.. إن الكلام يعجز عن وصفها.

وباختصار؛ كانت جميلةً مثل حبيبتك يا سيدي.. ومثل حبيبتك أيضًا، ومثل حبيبتك يا سيدي العزيز (وبهذه الطريقة، أتمنى أن أرضي كل الأذواق) فقد كانت تناسب كل الأذواق..

ودعا عفت بغداد كلها إلى وليمة. وكانت فرصةً برهن فيها طباخو المدينة الأسطورية على أنهم يُعْتَبرون بحق في طليعة طباخي العالم.

وبين قطعان الأغنام انتشرت شائعة نحس تقول:

"لقد حانت نهاية العالم، فقد عقد عفت العزم على القضاء

على كل الخراف، وأن يحشوها بالفستق، ويقطعها شرائح لضيوفه"..

وفي ذلك الزفاف البهيج الغني الفخم؛ ذرفت النساء دموعًا رقيقةً من الغيرة في الوقت الذي اتْخِمْن بالشراب والفطائر، والمربى المزينة بزهور الخوخ والجوز والمشمش..

أما الصبايا؛ فلم يأكلن إلا مربى الليلك، والياسمين المعقودة بالسكر، وقد أقسمن ألا يذقن شيئًا آخر غيرها حتى يوم زفافهن..

دارت الرأس بالكثير من ألوان أناشيد البنات وأغانيهن..

أما الشبان؛ فقد كانوا يقفون على أرجلهم بصعوبة من كثرة ما رقصوا، وثملوا من الخمر؛ التي يحرمها القرآن الكريم، ولكنها صرعت الشيوخ وكبار السن مثل عبد رقيق ارتمى على الأقدام ليقبلها..

وأخيرًا جاء منتصف الليل.. الساعة المنتظرة.. النساء اصطحبن العروس إلى غرفة نومها البديعة.. وبين الضحكات والصيحات الرقيقة المكتومة والهمسات الخاجلة؛ خففنها من ملابسها، ووضعنها فوق سرير العروس، المزين بستائر الدنتيللا..

وذهبت المواشط يبحثن عن العريس. وفي صحبة أصدقائه جاء عفت، وجلس كرجل شاب حكيم.. جاء بخطى فرحة ونشطة، لكن دون استعجال، لأن الحكيم لا يستعجل أبدًا: لا للمقصلة ولا للزفاف!

ولا لأي شيء جميل يستعجل ما دامت الحياة نفسها تنساب كسهم!

جلس حسان على الكنبة في مواجهة السرير. وبدون توتر أصغى لتهاني أصدقائه، وأمانيهم الطيبة، ونهض، وقال:

– إنني أحييكم يا أصدقاء صباي، وأقول: وداعًا لحياة العزوبية.

اتجه نحو السرير. في خطى ثابتة كلها ثقة بالنفس، ويملؤها الزهو... لكن، في تلك اللحظة، وفجأةً.. سقط السروال من عفت، وأحدث المنظر عاصفةً من الضحك:

العجائز نبحن كما لو أن أحدًا خنقهن، وضحكات النساء الشابات رنت كما لو كانت أجراسًا. أما الرجال؛ فقد انكفأوا على الأرض.. والعروس التي رأت كل شيء من خلف ستائر الدنتيللا؛ استولى عليها سرور جنوني، ولكي تخفيه راحت تحرك بيأس أساورها وحليها.

لقد أُغْمِي على الجميع من الضحك..

أما عفت فقد ظل في مكانه مشلولًا وساقاه العاريتان حمراوان من الخجل..

وباضطراب شديد تناول عفت سرواله، واندفع خارج البيت.. وفي الفناء الواسع قفز على أول حصان وجده – وكان يخص

بالتأكيد أحد المدعويين - وهمزه بشدة، ثم ركض بأقصى سرعة وهو يسمع ضحكًا هائلًا يتبعه..

بأية سفاسف قد ترتبط أحيانًا سعادة إنسان أو تعاسته؟!

ومثل المجنون اندفع عفت؛ يحث حصانه بغضب إلى الأمام في مغامرة مجهولة العواقب..

وفي صباح اليوم التالي؛ أبصر أمامه في الأفق مدينة دمشق.. يُقَال إن خبز المنفى مر! ليس هذا حقًّا! خبز المنفى ليس مرًّا ولا حلوًا. لأن أرض المنفى لا تنتج خبزًا - قط - للمنفيين. خبز المنفى ليس له طعم.

مسكين! وبدون دراهم في كيسه وجد عفت نفسه في شوارع مدينة غريبة..

وفي المدينة الغريبة: كل كلب متحفز لأن يلقي بنفسه عليك كما لو كنت لصًّا..

وفي المدينة الغريبة: كل باب ينتظر لتقرعه لكي ينغلق في وجهك..

وفي المدينة الغريبة: كل حجر مستعد لكي يطير فوق رأسك..

ليس في المدينة الغريبة سوى الأشجار. وهي وحدها التي تستقبلك بمودة؛ مادةً لك فروعها المحملة بالزهور، وكأنها تقول لك: "اشنق نفسك.. لا قيمة لك".

وبكل رهبة؛ تأمل عفت المدينة الغريبة، ثم مضى إلى السوق..

وهناك باع حصانه المجهد، واشترى بثمنه لوزًا محمصًا، وحمل الكيس على كتفيه، متوقفًا عند مشربيات المنازل لكي ينادي:

– ها أنا.. جئت من بعيد. أبحث عن أسنان امرأة يمكنها أن تنافس في جمالها ما معي من اللوز.. ها.. ها.. أين هنا الأسنان الأكثر جمالاً؟

وجاءه الصوت من خلف المشربيات:

– ومن يضمن لنا ألا تنكسر أسناننا تحت لوزك؟!

وأجاب عفت بتواضع:

– لا تخشي شيئًا يا سيدتي.. بمجرد أن يشاهد اللوز بياض أسنانك سوف ينهرس من الغيرة. وعندئذ لن يكون بك حاجة إلى تكسيره!

وما أن انتصف النهار حتى كان قد باع كل اللوز.

قام عفت بمراجعة أرباحه، ثم اشترى (برتقالاً بدمه) وراح يصيح:

– أين إذن الشفاه الوردية التي يمكنها أن تنافس برتقالي الأحمر؟

وأجابه الصوت من خلف المشربيات:

– هل برتقالك حقيقي كما تقول؟

– آه يا سيدتي.. إن الغيرة ستحول برتقالي إلى دموع في اللحظة التي يصبح فيها بين شفاهك.

ولم تكن الشمس قد انحرفت من وسط السماء بعد حين تم بيع البرتقال كله.

تاجر في كميات ضخمة من الفواكه والمكسرات، واشتهر في السوق، وفتح لنفسه آفاقًا، ثم ما لبث أن ترك تجارة الفاكهة لكي يمارس تجارة المجوهرات.

وفي يوم الاثنين – عندما تقتصر زيارة السوق على النساء فقط تبعًا للتقليد المتبع في بلاد الشرق – قام عفت – ذو اللحية المجعدة – بعرض بضاعته مبتسمًا بوداعة:

– سيدتي الجميلة.. سيدتي الجميلة.. هل ترغبين في ألا تذرفي دموعًا بعد الآن؟ اشتري إذن هذا الحلق.. انظري أية لآلئ؟ إنها دموع حقيقية. الدموع تجمل المرأة. هذا هو القدر.. القسمة.. اشتري هذا الحلق، وثقي بأن الدموع لن تلمع قط في عينيك. اشتري نعمة القدر. أليس من الأفضل أن تتلألأ الدموع في أذنيك بدلًا من عينيك؟!

...

– سيدتي الجميلة.. سيدتي الجميلة.. يا ذات الجمال الساحر.. لا تشتري شيئًا.. اكتفي فقط بالمشاهدة. إن نظراتك

ستحول زرقة هذه اللآلئ التركوازية إلى زرقة السماء. قولي لحبيبك أو زوجك أن يشتري لك "بروشًا" تركوازيًّا؛ حتى يضع فوق صدرك قطعة من السماء..

...

– هذا ياقوت؛ أزرق وعميق مثل البحر. وهذا ياقوت أحمر مثل نقطة الدم. إنه يضيء في الظلمة.. سيدتي الجميلة؛ اطلبي من حبيبك أو زوجك أن يقدم لك هديةً من هذا البحر، أو من نقطة الدم تلك.. لكنني أنصحك أن تأخذي نقطة الدم. فإن نقطة الدم تثير من العواطف ما لا يثيره بحر بأكمله!

...

– سيداتي الجميلات.. سيداتي الجميلات.. وهذه لآلئ..

فقالت إحداهن:

– أنا أخشاها.. فإن اللآلئ تعني الدموع!

– لا.. لا.. لا.. سيدتي.. الصغيرة وحدها يا سيدتي.. الصغيرة وحدها.. اللآلئ الصغيرة هي التي تسبب البكاء. أما اللآلئ الكبيرة فإنها لم تُبْكِ امرأةً قط.

وهكذا بالضحك والملاطفة كان يتاجر عفت. وأصبح غنيًّا، وفي نفس الوقت معروفًا في دمشق كلها.

ولكنها السياسة اللعينة..

وبلغت أخباره إلى السلطان نفسه..

ورغب السلطان في أن يرى محبوب الجميع؛ والذي ذاع صيته وقد سمع برغباته في المشاركة السياسية، وينعم بآرائه وعقله. وفي أثناء المقابلة قال له السلطان:

– أصعب شيء بالنسبة للسلطان هو اختيار وزرائه.

فانحنى عفت بعمق قائلًا:

– لا أحد يعرف هذا أفضل منك أيها السيد العظيم.. أما بالنسبة لي؛ فلا أعتقد في صعوبته. فإن هذا يحدث عندنا بصورة عادية جدًّا. إننا نعين شخصًا، أي شخص، ونعمل منه وزيرًا، ونعلن: "أيها الناس.. هذا رجل ذكي. عليكم أن تطيعوه. وإلا.. فحذار لرقابكم!"

وبدلًا من أن نجلب على أنفسنا كلام الناس، فإننا نختار الشخص الأكثر ذكاءً، ونعمل منه وزيرًا..

وهز السلطان رأسه:

– عجيب أن هذه الفكرة لم ترد على ذهني أبدًا! أخذ شخص ذكي، وتعيينه وزيرًا!

عفت.. إنك رجل ذكي. وقد عينتك وزيرًا.

– أوه يا سيدي! لا تتوقع مني إلا الطاعة.

أصبح عفت وزيرًا كبيرًا في لحظة. كان طيبًا وعادلًا وحكيمًا.

وأحبه الأخيار، أما الأشرار فخافوه وترصدوه.. وأُعْجِب الجميع بقوانينه التي أملاها، وشعر سكان دمشق كلهم بامتنان، وقالوا:

– أي وزير لنا! إنه ليس نبيلًا ولا مشهورًا.. يكفينا أنه ذكي.

ومرت عشر سنوات.. واستدعى سلطان دمشق وزيره المفضل، وقال له:

– عفت.. بارك الله في اليوم الذي تركت فيه موطنك الأصلي، وأتيت تقيم بيننا. وبارك الله في القرآن الذي يوصينا بإكرام الغرباء. ها هي عشر سنوات قد انقضت، وأنا أتبع فيها نصائحك، وأنفذ مشيئتك لصالح دمشق..

أما الآن؛ فإنني أرغب إليك في أن تصغي جيدًا لكلامي، وتنفذ مشيئتي.. اسمع يا عفت ...

وكرر السلطان ندائه لعفت وكأنما يحفزه للاستماع بدقة:

– يا عفت؛ أما الآن، فإنني أرغب إليك في أن تصغي جيدًا لكلامي، وتنفذ مشيئتي. اسمع يا عفت.. لم يعد أمامي وقت طويل لكي أستفيد فيه من نصائحك الطيبة. فما أقصر الطريق الذي يفصلني عن القبر، حتى أنني لا أكاد أجد الوقت الذي أنظر فيه خلفي..

وأنا أرى أن دمشقي العزيزة سعيدة بحكمك وحكمتك، وأريد أن أضمن لها هذه السعادة حتى آخر أيام عمري..

اسمع يا عفت.. ليس لي وريث، وسأعطيك ابنتي العزيزة زوجةً لك، وأجعل منك سلطان دمشق.. اسمع وأطع..

عندئذ قبل عفت الأرض بين يدي السلطان، وقال:

– لا تنتظر مني غير الطاعة أيها السلطان. والله وحده هو السلطان..

"عفت إن مدينة دمشق رائعة. لكن وطنك هو بغداد. هناك فتيات جميلات في العالم. لكن لا يوجد أجمل من تجاعيد الأم! والذي يفضل أن يكون سلطان بلد أجنبي على أن يظل مواطنًا بسيطًا في وطنه ليس أهلًا لأن يكون مواطنًا بسيطًا في بلده، ولا سلطانًا لبلد أجنبي"..

وهنا تملك سلطان دمشق غضب شديد:

– هكذا أيها الخادم ترفض أن تنفذ إرادة سيدك؟! إنني أريد أن أجعلك سعيدًا، وسأجعلك سعيدًا.

وهذا هو ضعف السلاطين: يعتقدون أنهم يستطيعون أن يجعلوا الناس مشهورين، وأغنياء، وأقوياء.. وكذلك سعداء!

ولكي يجعل السلطان عفت سعيدًا وضعه في السجن. لكنه هرب..

جهز حصانه، وملأ كيسه بالذهب، ورحل في منتصف الليل.. إلى بغداد..

انطلق هامزًا حصانه.. وحيث أنه غاب عشر سنين عن وطنه،

لم يدع الحصان يلتقط أنفاسه طوال الطريق..

وحين برزت من خلف التلال الأشعة الأولى من الشمس رأى عفت أبواب بغداد.. وبدا له أن الأشجار لا تزهر ولا تثمر في أي مكان في العالم كما تزهر وتثمر حول بغداد.. وكذلك المآذن.. لا ترتفع في السماء بمثل تلك العظمة التي ترتفع بها في بغداد..

ونزل من فوق حصانه، وسجد مقبلًا الأرض. وفي تلك اللحظة كانت هناك امرأة عجوز متسولة تجلس في ظل بوابة المدينة، وهي تفلي شعر حفيدتها الصغيرة من القمل..

نظرت الصغيرة إلى عفت وهو يسجد وقالت:

– انظري يا جدتي ما يفعله هذا الرجل.. إنه يأكل الأرض!

فأجابتها العجوز:

– اسكتي يا حمقاء.. إنه لا يأكلها، بل يقبلها. ثم إن هذا ليس من شأنك. ربما كان هذا الرجل يحب وطنه، وربما يكون أيضًا مخمورًا.. ومن الأفضل ألا يكون هذا أو ذاك. لكنك يجب أن تعرفي الآن.. فقد أصبحت كبيرةً..

وتساءلت الصغيرة في بلاهة:

– وكم عمري الآن يا جدتي؟

– عمرك؟ إنك في الحادية عشرة. فقد وُلِدت في السنة التي سقط فيها السروال من عفت في ليلة عرسه!

هنا شعر عفت أن وطنه يبصق في وجهه. وخاطب نفسه:

– الله أكبر.. آه.. الله أكبر، وكريم، ورحيم. إنهم يؤرخون باليوم الذي سقط فيه سروالي. وها هي طفلة صغيرة، تجهل عمرها، تعرف أنه منذ عشر سنوات.. سقط من عفت سرواله!

لقد عشت وجودين. وأصلحت حياتي.. من بائس مسكين إلى إنسان غني. ووصلت إلى قمة السلطة، وحكمت بلدًا، وأمليت قوانين حكيمة، وجعلت دولةً بأكملها سعيدةً. وكان من الممكن أن أكون سلطانًا.. وأول امرأة فقيرة أقابلها – تبحث عن قمل في شعر حفيدتها الصغيرة – لا تستطيع أن تنسى أنه منذ عشر سنوات قد سقط سروالي!

قفز عفت إلى سرج الجواد، وحول وجهه، واندفع في المغامرة..

هذا هو ما يعلمه من الناس..

لكن الله وحده يعلم ما في أعماقهم..

الراقصة والزبال

خرجت سونيا بوجهها الجميل الأبيض وشعرها المنسدل الأسود من صالة الرقص بشارع الهرم قرب الفجر وهي تتمايل ثملةً سكيرةً؛ تتسند على الحوائط والسيارات المركونة إلى جوار الرصيف، ولم تلحظ عم جميل عامل النظافة (الزبال) بوجهه الذي يميل للسمار، والذي ظهرت عليه آثار سنين الشقاء وهو يسعى نحوها ليسندها قبل أن تسقط على الأرض، وفجأةً انتبهت له وسألته:

– إنت مين؟

– قال الرجل: "خدامك يا ست هانم".

– (قالت وهي تضحك ضحكةً رنت في الفضاء): "تعالى يا خدامي أسند عليك"..

– (قال عم جميل): "تحت أمرك يا ست هانم"..

– (قالت وهي ما زالت تضحك ضحكتها العالية): شيلني يا خدامي..

– (قال الرجل وقد احمر وجهه من الخجل): ما يصحش يا ست هانم.. أنا ساندك لحد ما تمشي..

– (قالت وهي تشده): بقولك شيلني يا راجل.. مش قادرة أمشي..

– (قال الرجل): ما تآخذنيش يا ست هانم.. معرفش أعمل العيبة..

ضربته على صدره معلنةً غضبها عليه، وظل عم جميل يسندها حتى ظهرت سيارة أجرة، فلوح لها ووقفت، وقال عم جميل:

– فين يا ست هانم؟

– (قالت سونيا): مصر الجديدة يا خدام..

ورنت ضحكة تفجر صداها في السكون الرهيب، ثم أردفت:

– إنت مش جاي معايا يا مقطف؟

اشتد وجه عم جميل احمرارًا، فلم يكن متعودًا أن تهينه امرأة إلى هذا الحد.. سندها حتى ركبت وهم ساق التاكسي أن ينصرف فإذا بعم جميل يصرخ:

– يا ست هانم.. يا ست هانم..

توقف سائق الأجرة، ونظر إلى عم جميل؛ الذي لهث خلفهم وبيده حقيبة من البلاستيك، وبها بعض المحتويات الثقيلة؛ لم يعرف ما هي، وبمجرد أن رأتها سونيا قالت:

– قزازة الخمرة.. هاتها يا حرامي..

وهنا تمنى عم جميل لو كان سكبها على الأرض، أو تركها ولم

يكن حملها، وانتابه شعور بغيض وألم في ضميره ليس له حدود أنه حمل زجاجة الخمر..

انطلقت السيارة مسرعةً وجلس عم جميل على الرصيف يؤنب نفسه، وشق آذان الفجر السكون وكأنما جاء غوث السماء لعم جميل؛ فترك أدواته وأخرج زجاجة مياه يدخرها للوضوء، وتوضأ، وفرد كرتونًا كبيرًا، وصلى عليها..

...

جاء المساء التالي، وتكرر المشهد..

سونيا تخرج سكيرةً وعم جميل يتردد هذه المرة خشية أن يقع في نفس محظور الأمس، إلا أنه لم يستطع منع إنسانيته من مساعدتها مع تحفظه أن ينبهها أن لا تترك شيئًا، ولكنها هذه المرة أخرجت من كيسها نقودًا كثيرةً وأعطتها له.. رفضها الرجل لكنها أصرت..

وهكذا ظلت تعطيه كل يوم ما يخرج من كيسها والرجل لا يريد أن يصرفه خشية الحرام، ثم فكر بعد ذلك أن يعطي هذه الأموال لسيدة فقيرة تفترش الأرض وتلتحف السماء بجوار منزله..

...

وهكذا دارت الأيام، ويتكرر المشهد؛ حتى كان ذات يوم خرجت سونيا، ولكن في هذه المرة كانت في وعيها وتتأبط ذراع رجل يبدو عليه الأناقة والهيبة، وكان عم جميل قد وقف ينظر إليها، ولمحه

الرجل فلفت نظره، فظل يتعقبه بنظراته حتى وصل إلى سيارته.. وهنا نادت سونيا على عم جميل كي تعطيه ما اعتادت أن تهبه له.. فتعجب ذلك الرجل المهيب منها، فلما اقترب عم جميل منها إذا بالرجل ينهره ويصيح في وجهه..

ذُعِر عم جميل وابتعد مسرعًا، وظل هذا المشهد يعكر صفوه حتى جاء الغد، وقد قرر ألَّا يقترب من سونيا مرةً أخرى خشية الإهانة، لكنها أتت إليه ولم تكن قد شربت الخمر في هذا اليوم ووقفت تنادي عليه..

ذهب إليها على استحياء وقد بدا عليه القلق؛ فقالت له:

– ما تخافش يا عم جميل.. هو مش هنا، وما تزعلش.. حقك علي.. أصله علشان راجل مهم بيخاف حد يقرب منه..

– وأنا هاعمله إيه يا ست هانم؟ ما إنت شايفاني راجل غلبان..

– ده راجل مستشار كبير في القضايا يا حاج، وهو كده بيخاف حد يقرب منه..

ثم أخرجت وهبتها التي تهبها له وسألته:

– إنت بتعمل إيه بالفلوس دي يا عم جميل؟

أصاب الإحراج الرجل.. فهل يصدقها القول، أم لا.. ولكنه بادر بسرعة قائلًا:

– بتروح لصاحب نصيبها يا ست هانم..

تعجبت سونيا من الإجابة ولم تعقب..

...

وجاء اليوم التالي وجميل يترقب المشهد، لكنه رأى الرجل في هذه المرة فتوارى منه بسرعة حتى ذهب بسيارته ومعه سونيا..

مرت أيام وسونيا لا تظهر حتى طالت مدة غيابها، وفي كل مرة ينتظرها عم جميل؛ والذي شعر بحنين شديد إلى عطفها عليه واهتمامها به، وجاء في ذهنه ذلك الرجل المستشار، ولم يستطع تفسير الأمر.. إلا أنه دار بخلده شيء بخصوصه: لماذا لا ينشئ ابنه الصغير، ويؤسس له ليصبح مثل هذا الرجل، ولكن يعلمه الفضائل والأخلاق وكيفية معاملة الناس..

...

وبعد حوالي شهرين ظهرت سونيا فجأةً، ولم يستطيع عم جميل أن ينكر فرحته ويداري لهفته للاطمئنان عليها..

طار عليها بمجرد ظهورها، إلا أنه تذكر الرجل فتخاذل قليلًا..

رأته وقد تراجع وكأنها فهمت ما يدور برأسه؛ فقالت له:

– ما تخافش يا عم جميل هو مش هنا، ومش هاتشوفه تاني..

– ليه؟ خير يا ست هانم؟ يا رب يكون خير!

– أبدًا.. زيه زي غيره بياكل اللحم ويرمي العضم..

قال عم جميل في حسرة:

– وإيه اللي جابرك على كده يا ست هانم؟ حلال ربنا ما فيش أحسن منه والله..

نظرت إلى الأرض في خجل وندم، وقالت:

– وهو فين الحلال يا عم جميل؟ ده بقى أكل عيشي، لكن المرة دي غصب عني، ومش بكيفي حصل، إلى بخاف منه طول عمري..

– ليه؟ كفانا الشر يا ست الكل!

– حصل حمل يا عم جميل، ومش عارفة أعمل إيه.. مفيش غير إني أروح أنزل الجنين ده..

قال الرجل:

– حرام عليك يا ست هانم ها تبقى الغلطة غلطتين.. دي روح..

ارتبكت سونيا قليلًا، وما كان من عم جميل إلا أن أخذ يواسيها ويدعو لها..

...

عادت سونيا للغياب مرةً أخرى، ولم تعتد تنتظم في عملها، وعم جميل يريد أن يطمئن عليها دون جدوى حتى طالت مدة غيابها مرةً ثانيةً حتى يئس من رجوعها مرةً أخرى..

وفجأةً؛ وجدها أمامه تحمل طفلًا على كتفها؛ ففرح بشدة واندفع نحوها يهنئها على سلامتها، إلا أنها انهمرت دموعها بشدة بمجرد رؤية عم جميل..

جزع الرجل وقال:

– ما لك يا ست هانم؟ كفانا الله الشر..

– أبدًا يا عم جميل.. لكن سبحان الله؛ اتأثرت من حنيتك، وقارنت بينك رغم إنك غلبان وعلى قد حالك وبين أبو تامر..

– (رد الرجل بلهفة): إنت سميتيه تامر؟ بسم الله ما شاء الله..

– (قالت وفي صوتها الأسى): أبوه ناكره ومش راضي بيه وبيقولي.. وأنا أضمن منين يكون ابني؟

– لا حول ولا قوة إلا بالله! يعوض علينا ربنا.. يعوض علينا ربنا.. بس إنت اللي غلطانة يا ست هانم، سامحيني..

قاطعته سونيا وكأنها لم ترحب بالتأنيب؛ ففيها ما يكفيها، وانصرفت غارقةً في موجة من الحزن والضياع، وتركت عم جميل يدعو لها.. ولكن؛ لم يهدأ لها بال، وظلت تتبع والد تامر، ولم تيأس منه حتى قال لها وهو في قمة غضبه:

– أنا مش ناقص فضايح، لكن لو عاوزاني أعترف بالولد معنديش مانع، بس بشرط ...

– (ردت سونيا بلهفة، وقالت): إيه الشرط؟ إيه؟ مفيش حاجة في الدنيا تغلى على ابني..

– (قال المستشار): إثبتيلي إنه إبني..

– (صرخت سونيا في وجهه وقالت): مش مهم.. ربنا ما يحوجني ليك.. ربنا ما يحوجني ليك.. أنا اللي عارفة إنه ابنك مهما نكرت..

ظلت سونيا على هذا المنوال حتى كبر تامر ودخل المدرسة، وكانت لا تتدخر جهدًا ليصبح مرموقًا، ويعوضها عن سنين الذل والهوان، لكنه كان غالبًا ما يحصل على أقل درجات تبلغه النجاح، ورغم الدروس الخصوصية التي كانت تصرف عليها ببذخ إلا أنها لم تسعفه كثيرًا..

وكانت كل فترة وأخرى تتصل على والده تحاول معه إثبات البنوة، ولكن كانت تبوء بالفشل.. حتى وصل تامر إلى مرحلة اختيار كلية؛ فراحت تشور على أبيه في محاولة مستميتة لإلقاء المسؤولية على عاتقه، ولكنه بادرها قائلًا:

– كل اللي أقدر أعملهولك علشان العيش والملح أني أنصحك تدخليه كلية الحقوق، يمكن أعرف أساعده، لكن قسمًا عظمًا؛ لو فتحتِ بُقِّك لكون خافيك من على وش الدنيا: إنت وابنك..

وفى الرجل بوعده وأخذ بيد تامر حتى أوصله لسلك النيابة، ومن ثم القضاء، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

ساء سلوك تامر، وتمرد على كل شيء خاصةً بعد شعوره بالإهانة كلما تذكر مهنة أمه، وأنه مجهول الأب لأنها لم تستطع أن تبلغه بحقيقة أبيه طيلة هذه الفترة، ووصل الأمر به إلى قبول الرشوة فيما بين يديه من قضايا وأحكام، وأصبح سكيرًا عربيدًا زبونًا دائمًا للكازينوهات، ورفيقًا للراقصات ومضيفات الصالات؛ حتى وقع في قضية رشوة كبيرة..

انهارت أمه وتحطمت آمالها، وتعثرت أمانيها.. حققوا معه ثم أُحيل للمحاكمة، ولم تفلح محاولات أمه مع أبيه أن ينقذه.. تنصل تمامًا منه بل وغير رقم هاتفه حتى يقطع على سونيا حتى محاولة الاتصال به مع تهديده لها آخر مرة بتدميرها لو فتحت فمها بأي شيء يخصه..

...

وكان يوم محاكمته..

ذهبت إلى المحكمة، وبدلًا من أن تراه على منصة القاضي وتفخر به كان في قفص الاتهام.. وفجأةً دخل القاضي ونادى الحاجب: محكمة..

نظرت إلى القاضي بحسرة.. كم كانت تتمنى أن تراه مكانه، ولم يقطع خيالها إلا صوت إلى جوارها يقول:

– بسم الله ما شاء الله..

التفتت نحو الصوت فوجدت رجلًا عجوزًا بدت عليه علامات الزمن، ثم نظرت إلى المنصة وهم ينادون.. القضية رقم ...

لكنها عادت لتنظر إلى الرجل وكأنها تعرفه.. حدقت فيه كثيرًا، ثم أطلقت صيحةً صغيرةً، وقالت:

– مش معقول؟ عم جميل؟

التفت الرجل إليها، وقال في لهفة وصوت متهدج:

– ست هانم؟ مش ممكن؟

قالت رغم انشغالها وحزنها بما هي فيه:

– خير يا عم جميل؛ما لك؟ في إيه؟ وهنا بتعمل إيه؟

قال لها الرجل وهو يشير بإصبعه وقد خفض يده:

– جاي أتفرج على نور عيني، وحبة قلبي: حسام ابني.. بقى قاضي قد الدنيا وربنا عوضني بيه عن كل سنين الشقا..

وعد شرف

يؤسفني جدًّا أنني لا أستطيع أن أذكر لكم اسم هذا الصبي الصغير، وأين يعيش، ومن هي أمه، ومن هو أبوه، لأنني في الظلام لم أتمكن من رؤية وجهه. فقط أذكر أن أنفه كان به بعض النمش، وأن بنطلونه كان قصيرًا، لم يُثَبت بحزام، وإنما بحمالة تنقلب من فوق الكتف، وتُزَرر في مكان ما على البطن.

على نحو ما؛ توجهت في الصيف إلى حديقة - الميريلاند - بالقرب من حي مصر الجديدة. وكان معي رواية ممتعة للروائي عصام قابيل لفت نظري عنوانها - كرامة من زجاج -، رحت أقرأها، ولم ألاحظ كيف حل المساء. وعندما ضعفت عيناي من الزغللة، أصبحت القراءة من الصعوبة بمكان؛ فنهضت متجهًا للخروج..

كانت الحديقة قد بدأت تخلو من الناس، وفي ممراتها راحت المصابيح تشع من آن لآخر. ومن خلف الأشجار رن جرس الحارس. ولأنني خشيت أن تُغْلَق الحديقة مشيت مسرعًا جدًّا. وفجأةً توقفت، فقد وصل إلى سمعي من خلف بعض الشجيرات أن أحدًا يبكي..

انعطفت إلى جانب الطريق، حيث لاح على البعد بيت صغير

بلونه الأبيض وسط الظلام: بيت حراسة أو كشك كذلك الذي يوجد في كل حدائق المدن. وكان بقربه حائط؛ وقف بجانبه فتى صغير، لا يزيد عمره عن سبع أو ثماني سنوات وهو مطأطأ الرأس، وينتحب بشدة دون سلوى من أحد!

اتجهت إليه وناديته:

– أيها الصغير.. ماذا بك؟

– لا شيء.

– كيف لا شيء؟ من ضربك؟

– لا أحد.

– ما الذي يبكيك إذًا؟

كان من الصعب أن يتكلم، وكذلك أن يمسك بكل دموعه. وكان ينشج، ويفوق (من الفواق: الزغطة)، وينشق بأنفه! قلت له:

– هيا نمضي.. انظر، فقد صار الوقت متأخرًا، والحديقة تغلق..

وأردت أن أجذبه من يده، لكن الصبي سحب يده بدون حرج قائلًا:

– لا أستطيع.

– ما الذي لا تستطيعه؟

– لا أستطيع السير.

– كيف؟ لماذا؟ ماذا بك؟

– لا شيء.

– هل أنت مريض؟

– لا.. صحيح بصحة جيدة.

– إذًا؛ لماذا لا تستطيع السير؟

– أنا حارس.

– أي حارس! أي حارس!

– ماذا أنت؟ ألا تفهم! نحن نلعب..

– آه.. مع من تلعب..

سكت الصبي، وبلع ريقه، وقال:

– لا أعرف.

وهنا بدا لي أن الصبي ربما يكون مريضًا، وأن في رأسه خبالًا، فقلت له:

– أصغ إلي.. ماذا تلعب؟ وكيف كان ذلك؟ تلعب، ولا تعرف من أنت؟

– نعم، لا أعرف. فقد كنت أجلس على دكة في الحديقة، ثم قابلت مجموعةً كبيرةً من الأولاد، وقالوا لي: "هل تريد أن تلعب

معنا لعبة الحرب؟" فقلت: "أريد". ورحنا نلعب.

قالوا لي : "أنت عريف"وكان هناك ولد كبير أرسلني إلى هنا، وقال: إن لدينا مستودع ذخيرة في هذا الكشك وستكون أنت حارسه. فابق هنا، ولا تنصرف حتى لا أبدلك بشخص آخر قلت له: "حسنًا". قال: "أعطني وعد شرف على أنك لن تذهب".

– هيه..

– قلت له: "وعد شرف: لن أذهب"..

– وماذا بعد؟

– ها أنا ما زلت واقفًا.. واقفًا، وهم لا يأتون!

حينئذ ابتسمت وسألته:

– حسنا.. وهم وضعوك هنا منذ وقت طويل؟

– كان النهار ما يزال ...

– ولكن أين هم؟

– أعتقد أنهم مضوا..

– كيف مضوا؟

– نسوا..

– ولماذا تجلس إذن؟

– لقد أعطيت وعد شرف..

أردت أن أبتسم مرةً أخرى، لكنني تنبهت فجأةً إلى أن الضحك في هذا الموقف لا يليق، وأن الصبي على حق تمامًا. فما دام قد أعطى وعد شرف، عليه أن يبقى مهما حدث ولو على حياته! ويستوي بعد ذلك أن يكون الأمر لعبةً، أو غير لعبة.

قلت له:

– إذا كان هذا قد حدث، فماذا تصنع الآن؟

قال الصبي، وقد بدأ يبكي:

– لا أدري!

أردت أن أقدم له أية مساعدة ممكنة، لكن.. ماذا أستطيع أن أفعل؟ هل أذهب للبحث عن أولئك الأطفال السخفاء، الذين وضعوه في الحراسة آخذين منه كلمة شرف، وأسرعوا هم إلى منازلهم؟ لكن أين أجد هؤلاء العفاريت؟! لا شك في أنهم قد تناولوا عشاءهم، وذهبوا إلى الفراش، ورأوا عشرات الأحلام. أما الصبي، فيجلس هنا الساعات الطويلة في الظلام، وهو جائع حقًّا!

وسألته:

– هل تريد أن تأكل؟

– نعم.. أريد.

قلت بعد تفكير:

– حسنًا، أسرع أنت للمنزل لكي تتعشى، وسأبقى أنا بدلًا منك هنا.

وقال الصبي:

– نعم.. لكن هل هذا ممكن؟

– ولماذا لا يمكن؟

– إنك لست شخصًا عسكريًّا..

هرشت قفاي، وقلت:

– صح.. لن تذهب.. حتى أنا لا أستطيع أن أكون مناوبًا مكانك.. الذي يمكنه أن يقوم بهذا العمل شخص عسكري.. قائد!

وفجأةً قفزت إلى ذهني فكرة طيبة، واعتقدت أنني إذا حررت الصبي من وعد الشرف، فإنني أحرره من الحراسة أيضًا، هكذا ينبغي أن يكون العمل. لكن من الضروري الذهاب للبحث عن شخص عسكري. لم أقل شيئًا للصبي. أبلغته فقط: "انتظر لحظةً"، وأسرعت بنفسي إلى مكان الخروج.

لم تكن بوابة الحديقة قد أُغلِقت بعد، أما الحارس فقد ذهب إلى أقصى الحديقة، لكي يتصل من هناك بمركز حراسته. وقفت بالقرب من البوابة، ولم يمر بالقرب مني أي شخص عسكري، أو

حتى جندي من الجيش. وكما يبدو لم يكن في الشارع أي شخص يرتدي الملابس العسكرية.

وفجأةً؛ ظهرت في الجانب الآخر من الشارع مجموعة من المعاطف السوداء. فرحت، وظننت أصحابها عسكريين، لكنني عندما عبرت الشارع مسرعًا لم أجدهم كذلك، وإنما طلاب صغار في مدرسة صناعية.

ومر رجل سكة حديد طويل القامة يرتدي معطفًا جميلًا جدًّا، مزينًا بعلامة خضراء. لكن هل كان من الممكن لمثل هذا الرجل أن يقف ويستمع لي.. أردت أن أعود للحديقة، وجهي مثل قفاي.

لكن فجأةً؛ لمحت عند الناصية على محطة المترو "كاب" أحد القادة بإطار أحمر. ويبدو أنني لم أفرح قط في حياتي مثل فرحي في تلك اللحظة. واندفعت نحوه بكل قوتي. لكنني مع الأسف لم ألحق به، لأنه كان أسرع مني في الصعود إلى (المترو). وقفت على المحطة، إلى أن أقبل ضابط شاب، برتبة ملازم، وكان يشق طريقه وسط الجمهور المتجمع حول باب العربة. وأسرعت إليه، ممسكًا بذراعه، وصحت:

– رفيقي الضابط.. دقيقة واحدة.. انتظر.. رفيقي الضابط!

التفت إلى ناظرًا باستغراب، وقال:

– ماذا حدث؟

– هل تريد أن تعرف ماذا حدث؟ هنا، في حديقة، بالقرب من "كشك" حجري، يجلس طفل صغير منذ ساعات.. إنه لا يستطيع الخروج. فقد أعطى وعد شرف ألا ينصرف.. إنه صغير جدًّا.. إنه يبكي.. إنها قصة سوف أحكيها لك بلا شك..

قطب الضابط عينيه، ورنا إلى بدهشة أكبر. ربما ظن هو أيضًا أنني مريض، وأن في رأسي خبالًا.. لكنه قال:

– إنني هنا ذاهب في عمل؟

ولكن (المترو) كان قد فاته؛ فنظر إلي بغيظ، فانتهزت الفرصة وشرحت له القصة بوضوح أكثر، وعندما فهمها لم يعد يفكر، وعلى الفور قال:

– فلنذهب.. لنذهب بالطبع.. لماذا لم تقل هذا لي مباشرةً؟!

وعندما توجهنا إلى الحديقة، كان الحارس قد أغلق البوابة تمامًا. وطلبت منه الانتظار عدة دقائق، وقلت له: "إن في الحديقة صبيًّا باقيًا"، واندفعنا – الضابط وأنا – إلى داخل الحديقة.

وفي الظلام اكتشفنا بصعوبة البيت الصغير الأبيض.. كان الصبي واقفًا في مكانه بالضبط حيث تركته. ومرةً أخرى كان يبكي

بهدوء شديد. ناديته؛ ففرح جدًّا إلى حد أنه صرخ من الفرح. أما أنا فقلت:

– ها هو ذا.. قد أحضرت قائدًا.

اعتدل الصبي في وقفته، ولكي يرى القائد بصورة أفضل مد جسمه الصغير لأعلى عدة سنتيمترات.. وقال القائد:

– أيها الرفيق الحارس.. أي رتبة تحملها؟

– أنا عريف.

– رفيقي العريف.. آمرك بترك مركز حراستك؛ الذي عُهِد به إليك.

سكت الصبي، وحك أنفه، ثم قال:

– وما هي رتبتك أنت؟ فأنا لا أرى تمامًا عدد النجوم التي على كتفك؟

– أنا ملازم وهي نجمة، ولكنها تسطع بالقوة يا عريف.

عندئذ رفع الصبي يده مؤديًا التحية العسكرية، قائلًا:

– حاضر – حضرة الضابط – بالأمر أترك نقطة الحراسة.

قال هذا بصوت مسموع، وبمهارة بالغة إلى حد أننا لم نتمالك أنفسنا وانفجرنا من الضحك. وابتسم الصبي بسرور وارتياح.

عدنا إلى باب الحديقة المغلق، وانتظرنا عدة لحظات، قبل أن يفتح الحارس لنا القفل المغلق.

ومد الضابط يده محييًا:

– ممتاز يا رفيقي العريف. منك يخرج المحارب الحقيقي.. إلى اللقاء!

وتمتم الصبي ببعض كلمات، قائلًا: "إلى اللقاء"..

وتركنا الضابط مسرعًا إلى المحطة نحو (المترو) الذي كان قادمًا. أما أنا؛ فقد شددت على يد الصغير، وسألته:

– هل يمكنني أن أوصلك؟

– لا.. فأنا أسكن قريبًا من هنا.. إنني لا أخاف.

ونظرت إلى أنفه الصغير ذي النمش، واعتقدت حقًّا أنه لا يخاف من شيء. إن الصبي الذي لديه مثل تلك الإرادة القوية، وهذه الكلمة المتينة لا يخشى الظلام، ولا يخاف من المجرمين، ولا يرتجف من أكثر الأشياء رعبًا!

وعندما يكبر ... لا أدري ماذا سيكون عندما يكبر؟ على أي وضع كان، فإن المضمون بالفعل أنه سيكون شخصًا حقيقيًّا.

هكذا فكرت وأنا أسير وحدي مسرورًا من تعرفي على هذا الصبي الذي أشد على يديه بقوة.. مرةً أخرى!

جريمة شروع في الأمل

مساء الأربعاء – وقبل رحيله إلى القاهرة – تجول في أحد شوارع دمشق.. ثم ذهب لمشاهدة فيلم (جريمة حب).

وعندما خرج من السينما، تمشى طويلًا في شارع دمشق مفكرًا في تلك المدينة الشاسعة الدافئة والمزدحمة إلى حد كبير؛ والتي سيتنزه فيها غدًا، وقد يكون لآخر مرة في حياته.

لقد أجل هذه الرحلة أكثر من مرة، لأن هناك مسألةً كانت تقلقه: كيف سيقابل (حنان)؛ التي أحبها منذ خمسة عشر عامًا، في قرية هادئة على نهر النيل على مشارف القاهرة، والتي تعيش الآن في القاهرة..

كان هو أيضًا وحيدًا، ويقترب من الأربعين. وفي المساء؛ غالبًا ما كان يفكر في موته، فلم تعد له حاجة في هذه الحياة.. لكنه كان يعد نفسه بأنه لن يموت قبل أن يرى فيلم (الأمل الباقي)، وحبيبته القديمة (حنان).

كان يتسائل أيضًا: "لماذا يحلم بها كثيرًا؟ لماذا تشبهها كل النساء اللواتي عرفهن بعدها؟ لماذا كان سخيفًا معها لحظة الفراق؟ إنها لم تغفر له قط، وهو يعلم أنه على إثر محاولة انتحار منها، ودخولها

إحدى مصحات الأمراض النفسية قد فقدها وتركها، وقد يكون إلى الأبد.

تذكر كل هذا كحلم ثقيل، ربما تزيله تلك الرحلة السريعة إلى القاهرة. ولأنه كان في بعض اللحظات إنسانًا رومانسيًّا، فقد أقنع نفسه بأنه سيذهب ليلتقي في وقت واحد بذكريات جميلة وامرأة، أو بماضيه وموته.

وفي لحظات أخرى؛ كان يسخر من مراهقة أحلام يقظته، ومن المجاملة التي عامل بها حياته، والتي أراد منها أن يستدر الشفقة على نفسه. إنه القارئ الوفي لإحسان عبد القدوس؛ والذي كان يعتقد بأن المرأة إن لم تسيطر فلا حياة لها!

في القاهرة؛ نزل في فندق (رويال) برمسيس. كان قد كتب منذ أسبوعين إلى (حنان) أنه سيقضي فيها ثلاث ليالٍ، وأنه يتمنى أن يلتقي بها. أما هي فلم ترد. كما لم تكن في انتظاره بالفندق أية رسالة منها.

ولكن وبعد أن استراح قليلًا؛ بدأ يجري مكالمات من هاتفه إلى بعض الأصدقاء. ولكن لم يجرؤ أن يهاتفها هي. كان يخشى ألا تكون موجودةً، أو أن ترفض الرد عليه أو مقابلته. كان يشعر بأنه يمكن أن يمنح عدة سنوات من عمره لقاء سهرة واحدة يقضيها.

إلا أنه لم يستطع تقمص هذا الدور بلا إرادة.. إنها إرادة الحب.. عندما كلمها، سمعها تتحدث عن أنها كانت مشغولةً جدًّا. وأخبرته أنه يوجد في القاهرة على أية حال، وهناك أشياء أخرى أكثر إثارة من رؤيتها ولها أولويات..

ومجروحًا؛ تردد في أن يرد بنفس اللهجة. بل إنه خشي أن تضع السماعة، لكنه استمر.. هو الذي كان يرى أن كلا من التواضع والإلحاح ضرب من الحماقة. وأخيرًا سمعها تلقي إليه بهذه الكلمات كصدقة: "هاتفني يوم السبت بعد الظهر؛ ربما تمكنت من أن أتغدى معك".

قبل أن ينام، كتب في مذكراته: "هل حقيقةً أن (حنان) هي التي تشغلني؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الجزء من ذاتي الذي لم ينجح في أن يتخلص منها؟ تلك هي مأساة الحب الذي يحرمنا أحيانًا بصورة نهائية من آلاف الأشياء التي نمتلكها"..

ثم أضاف أنه سيكون مخطئًا لو لام (حنان) على أي شيء. لأن "كل ما حدث هو خطئي عندما قطعت علاقتي بها.. تصرفت نحوها مثل وغد. إنها لم تغفر لي قط. ولم تسامحني قط. يبدو أنها ستظل تكن لي الكراهية، وأنا أشعر على فقدانها بالندم. وهكذا نصبح متعادلين".

في اليوم التالي - الجمعة - ذاب في أحشاء تلك المدينة الضخمة والهائلة التي أحبها من قبل. وقد فكر أنه إذا اضطر يومًا لمغادرة سوريا؛ فإنه سيجعل من القاهرة ملجأه. ولأنه شاهدها مئات المرات في السينما والتليفزيون - في تلك السنوات العجاف من الرغبة والحنين في غربته - لم يشعر فيها بأية غرابة.

إلا أنه - مع ذلك - شُغِف بملاحظة مدى فقر أحاسيسنا وخطئها. فحبها كحب الأم؛ فنحن نحب الأم ليس لأنها أجمل ما تكون، ولا لأنها الأحسن في كل شيء، ولكن نحبها لأنها أمنا، وهكذا لم يندهش لرؤية التاكسيات تحمل اللون الأبيض، كما لم يُفَاجأ بكم المارة على الأرض بكثافة مذهلة..

جاء السبت - وعند الظهر تمامًا - بعد أن تنزه في حي الحسين - .. دق بهاتفه على (حنان). أعطته موعدًا في مطعم جاد بوسط البلد الذي يقع في شارع عبد الخالق ثروت.

كما كان متوقعًا وصل هو أولًا، وجاءت هي متأخرةً.

كان متوترًا، وغير مستريح. أحس بأنها عصبية، ومشدودة، غضبى، ومحاطة بأسلاك شائكة غير مرئية. لكن ما أدهشه أكثر كان هو سماع صوتها: أجش، عميقًا، حسيًّا على نحو لا يُقَاوم.. أنصت إليها بقداسة، كما لو كانت هي الموسيقى الوحيدة القادرة

على أن تهدئه.. على أن تصالحه مع ذاته إلى حد أنه كان يفتقد معظم خيوط المحادثة. وعمومًا؛ فإنه كان دائمًا لا يهتم بجلسائه الذين يخونون - بطريقة حديثهم ولهجتهم وحركات أجسادهم - شخصياتهم الحقيقية!

تغديا معًا في مطعم جاد. وقد طلبت هي مشروبًا ساخنًا، لاحظها وهي تشربه. كاد يجرؤ أن ينظر إليها. كان يشعر معها بشعور من الخجل الذي كان يحدث بين تلميذ وتلميذة في مدرسة واحدة. لكنه بدأ يشعر بإحساس من الفرح لأنها نسيت ماضيها. ومع ذلك، فكلما مضى الوقت، راحت علاقتهما تصبح أكثر طبيعيةً، وتقريبًا متواطئةً.

وتبادلا بعض الاعترافات الذاتية. حدثته هي عن محاولاتها الثلاث في الانتحار، وعن وحدتها، وعن شعورها بأنها لا تجد في أي موضع المكان الذي يناسبها. أما هو فقد حاول أن يستعيد بعض المشاهد التي عاشاها معًا، بعض الأفلام التي أحباها، وخاصةً (حبيبتي؛ لمحمود ياسين وفاتن حمامة).

لكنها أخبرته بأن ذاكرتها ضعيفة، وأنها تتذكر بصعوبة حبهما القديم، ثم بعد ذلك أخذت عليه أنه يعيش أكثر مما ينبغي في الماضي. وبسرعة أجاب: "لكنني أجد فيه سعادتي الوحيدة".

كان منتشيًا من وجوده هنا، وببساطة معها. سعد كثيرًا من رؤيتها أكثر عفويةً، وأكثر بساطةً، ولم يندهش قط عندما اقترحت عليه أن يتنزها في أي حديقة عامة. وهناك تحدثا عن (بروست) ونظريته في الحب، وعن (سيوران) وانحطاط الغرب.

بروست الذي قرأه لها بصوت عالٍ خلال أمسيات كاملة، وسيوران الذي جعله يكتشف الحاضر والماضي. وفي تلك اللحظة، اعترف كل منهما للآخر بحبه..

قرب الغروب؛ طلبت منه أن يصحبها عند أحد محلات الموضة. وبينما راحت تخطو من جناح لآخر في المحل، كان هو يراقبها، وسأل نفسه: "هل كنت سأنجذب إليها إذا كنت أراها الآن للمرة الأولى؟" ولم يستطع إلا أن يرد بالإيجاب. وتساءل أيضًا: "هل لو كنت تزوجتها - كما كانت هذه نيتي من قبل –هل سأعتبرها الآن هفوة شباب يلزم التكفير عنها طوال العمر"..

حسب تعبير فيلسوفه العزيز (شوبنهور). إن أفعالنا - كما قرر لنفسه أكثر من مرة - عبارة عن ضربات زهر في ظلمة ليل المصادفة!

في أثناء صحبته لها إلى منزلها، حرص على أن يخبرها أنه ما زال يحس بأنه مذنب في موقفه. وصرحت له حول هذه النقطة

على الأقل: "أنا تغيرت. لقد طرحت عادة تغيير الآخرين لحساب مشكلاتي الشخصية. إنني أعتقد أن كل إنسان ينال في الحياة ما يستحقه"..

ورد بابتسامة عندما أصغى لها وهي تستشهد بعبارة مأثورة لأبيكتيت؛ الذي أرسله لها لحظة الفراق: "إن اتهام الآخرين بعذاباتي الشخصية لا يعني إلا الجهل. وفقدان الهوية الخاصة.. إنما يأتي من شخص بدأ يثقف نفسه. وإذًا؛ فلا ينبغي اتهام الذات أو الآخرين، لأن هذا إنما يحدث من شخص مثقف بالكامل". وأضافت: "ألا ترى؟ إنني لم أنس تمامًا كل شيء!"..

كان الليل قد سقط من وقت طويل عندما وصلا أمام منزلها. وكان هو في الوقت نفسه مرتاحًا وقلقا. ماذا يفعل لكي يعود إلى ذلك الوقت الذي يجعلها فيه سعيدةً.

قالا: "إلى اللقاء" كأصدقاء قدامى.

تردد في أن يأخذها بين ذراعيه وأن يقول لها: "ابقي معي. لن نفترق بعد الآن. سنعيش منذ الآن أحدنا للآخر.. أحدنا بالآخر".. ومع ذلك صمت. لا خوفًا من أن يُصَدَّ من جانبها.. كانت لديه تجارب كثيرة مشابهة؛ علمته أنه كان بالتأكيد صادقًا في اللحظات

التي يقول فيها أمثال هذه الكلمات، لكنه كان في الوقت نفسه يكذب لأنه كان يحس بعطش إلى المغامرة، وإلى عدم الوفاء..

كان يعرف عن نفسه أنه غير ملتزم، لكنه وفي.. وفي للغاية. لأنه حتى لو أراد، فلن يستطيع أن ينسى أقل التفصيلات الصغيرة التي عاشها مع النساء اللاتي أحبهن. ولم يكن يريد أن يختار. لم يكن يريد أن ينزعج. إن لم يكن حتى الآن..

جذبها ليحيطها بذراعيه، لكنه أفقدها توازنها دون أن يشعر، فتشبثت بيديه فهوى معها وسقط فوقها، وجاءت سيارة مسرعة بقيادة أرعن، فصدمتهما؛ فماتا في الحال..

فراق

ارتبطت به في قصة حب رائعة حتى صار كل حياتي، ولا أستطيع العيش بدونه، وكان كل شيء يهون أمام ناظري حينما أتذكر أنه ما زال باقٍ في حياتي، وأن الله تعالى لم يحرمني منه..

كنت دائمًا متسامحًا بسببه، وأنزل لكل من حولي من أجله سواءً استشعرت الخطأ فيهم أم لم أستشعره..

ولم أكن أدري أنني سأراه يغادرني يومًا معلنًا فراقي.. إنها لحظات يتسرب فيها عمري حسرةً عليه، وأنا ألتمسه وأستجديه وهو قد أدار ظهره وبدأ يبتعد رويدًا رويدًا..

سألت عنه عند الأقارب.. عند الأهل عند الخلان؛ قالوا: "لقد قرر أن يهاجر"..

وقفت على محطة القطار أحاول أن أثنيه عن عزمه وأنا أبكي بكاء الأم على فقدان ولدها، وهو ينظر إلى مشفقًا، فقد قرر أن يمضي والدموع تسيل محدثةً ضجيجًا والقلب يتلوى من أثر الفراق..

مددت ذراعي أحاول أن أتشبث به ولكن دون جدوى..

انتابتني حسرة مزقت قلبي، وأردت أن أصرخ صرخةً تبلغ عنان السماء، وتشق الكون بأسره وأنا أقول له: "تعالى أيها (الود) لا تتركني فلن أحب غيرك ولن أعيش بدونك"..

الجنرال والراعي

ذات صباح جميل؛ مر بالراعي جنرال ضال متجول. وبعد أن تبادلا التحية قال الراعي:

– يوجد هنا دب شرس. لا يتركني آمنًا قط. في كل يوم، يخطف مني خمسة أو ستة نعاج. ألا توجد وسيلة أستطيع بها أن أنجو من شره؟

فأجاب الجنرال:

– سأقتله في نفس المكان. ولن أطلب منك شيئًا سوى ثلاث قطع من الجبن الأبيض القديم..

أسرع الراعي فأعطاه الجبن الذي طلبه. وجاء الدب كعادته ليخطف النعاج. وعندما وصل تقدم إليه الجنرال وبدأت بينهما مناقشة، لترشيح من منهما أقوى من الآخر، وبالطبع ظن الدب أنه هو الأقوى. لكن الجنرال قال له:

– إنني سأسحقك مثل هذا الحجر.

وأخرج من جرابه قطعة الجبن الأبيض، ثم القطعة الثانية، وبدت القطع كما لو أنها تحولت إلى دقيق مطحون.

وزادت دهشة الدب فأمسك هو أيضًا حجرًا أبيض من فوق الأرض، لكنه لم يقدر أن يفعل به مثلما فعل الجنرال.

عندئذ نشأت بينهما صداقة مشتركة، وانصرفا معًا.

وبعد وقت قصير جاع الدب، فطلب من الجنرال أن يذهب ليصطاد لهما ثورًا يأكلانه قائلًا له إنه في أثناء ذلك سوف يجمع الحطب من الغابة..

لكن الجنرال تدارك الأمر وقال له:

– اذهب أنت لاصطياد الثور. لأنني لا أهتم باصطياد مثل تلك الفريسة الصغيرة! إن ما يليق بي إنما هو اصطياد أسد!

وهكذا استطاع أن يتجنب اصطياد الثور. أما الدب فقد مر بجانب قطيع من الثيران، وبسرعة قفز على ثور وعاد به يحمله على كتفيه.

وفي تلك الأثناء، مضى الجنرال إلى الغابة. وهنالك.. ماذا فعل؟

تناول حبلًا طويلًا، وربط به كل أشجار الغابة كما لو أنه سيقتلعها بجذبة واحدة.

وعندما عاد الدب نادى على صديقه الجنرال. فلم يرد، فمضى الدب إلى الغابة، وشاهد ما أعده لاقتلاع كل أشجار الغابة بجذبة واحدة.

زادت دهشة الدب من صديقه. وقال لنفسه: "إن هذا الرجل أقوى مني ألف مرة".

***

نظر الدب إلى الأشجار بتعجب ثم قال بعد ذلك بصوت عال:

– ماذا ستفعل بكل هذه الأشجار التي ستقتلعها؟ خذ منها فقط فرعًا أو فرعين، وعد..

فأجاب الجنرال:

– أنا لست الرجل الذي يأخذ قطعتين صغيرتين من الغابة لكنك أنت الذي يفعل ذلك.

وهكذا تخلص من هذه المهمة..

وعندئذ جذب الدب فرعين كبيرين من شجرة. ثم عاد إلى مكان الثور، وراح يقطعها.

لكن كان ينبغي أن يحضر ماءً ليطبخ الثور. فقال الجنرال:

– سوف أذهب لإحضار الماء، فابق هنا لتقليب الخشب بدلًا من أن تتعب نفسك (قال هذا لأنه لم يكن بقادر على أن يقلب ثورًا ضخم الجثة).

ثم أخذ وعاءً، ومضى به إلى نبع يفيض من صخرة. وبعد أن

ملأه، وضعه على كتفه، لكنه لم يستطع أن يحتفظ به طويلا ، فتركه يسقط على الأرض قبل أن يتهاوى من الإعياء.

انتظر الدب ساعةً، ساعتين.. وأخيرًا اتجه إلى النبع الذي ذهب إليه الجنرال. وعندما وصل قال له:

– لماذا تأخرت كثيرًا هكذا؟

فأجابه الجنرال:

– كنت أفكر في طريقة لإحضار النبع من الصخرة التي يخرج منها! ومع الأسف لم أستطع إحضاره كما ينبغي. وقد وجدت أن رجوعي وحدي بوعاء يخجلني. أما أنت، فيمكنك حمله.

حمل الدب الوعاء على كتفه، ثم عاد الاثنان.

وبينما هما سائران، قال الدب للجنرال:

– هيا بنا نتصارع معًا لبعض الوقت؟

فصاح الجنرال:

– انج بنفسك مني.. لأنني لا أرغب في أن أسبب لك أذًى..

نظر الدب إلى الجنرال وقد ارتسمت علامات القبول على وجهه، ولكن مع ذلك انتهى بهما الأمر إلى أن يتصارعا..

بدأ الصراع وضغط الدب على الجنرال بقوة جعلت عينيه

تكادان تخرجان من رأسه.. وعندما شاهد الدب وجهه المنتفخ، وعينيه البارزتين، اللتين جحظتا بشدة، سأله:

– لماذا أصبحت هكذا؟

فأجاب الجنرال:

– لأنني لا أعرف بالضبط أين أقذف بك.. من هنا فأمزقك قطعًا، أم من هنا، وهذا أسوأ..

فقال الدب:

– اسمح لي أن أطلب عفوك.. وترضى عني.. (وتركه)..

وسارا سويًّا مرةً أخرى وبعد وقت قصير، وصلا إلى موضع الثور المطبوخ وأخذا يأكلان. وبعد قطعتين صغيرتين من لحم الثور، توقف الجنرال عن الأكل فسأله الدب:

– لماذا توقفت؟

– لم تعد لي حاجة للطعام، بعد أن أكلت عددًا من الخراف وأنا ذاهب لحمل الماء (وكان الجنرال أضعف من أن يلمس خروفًا واحدًا)..

وبعد الطعام اقترح الدب على الجنرال أن يصحبه إلى منزله كصديق عزيز. وأخذه إلى المنزل.

وما إن وصلا حتى طلب الدب من أمه وأخته أن يشحذا له

الفأس، لأنه صمم على قتل الصديق الذي أحضره، وهكذا يتخلص من الإنسان الذي اكتشف أنه أقوى منه. وما أن سمعت أخت الدب (وكانت دبةً طيبةً) هذا الكلام حتى أسرعت إلى الجنرال، وحكت له كل شيء.

جاء الليل، وجلس الدب على المائدة، وأكلوا جيدًا، ثم تمددوا على الأرض، وناموا.

تظاهر الجنرال بالنوم في المكان الذي اختاره أمام الدب، لكنه ما لبث بعد أن هدأت الدنيا من حوله أن اختبأ خلف "بردعة" حمار كانت ملقاةً في المكان. وعند منتصف الليل نهض الدب، وتناول فأسه، ثم هوى به على جسد الجنرال ثلاث أو أربع مرات. وبعد أن اعتقد أنه تحطم تمامًا عاد إلى مكانه ونام.

قبل طلوع الصباح نهض الدب وذهب إلى الغابة. وعند عودته ماذا رأى؟

الجنرال!

وما إن رآه حتى راح يفرك عينيه غير مصدق نفسه. ومع ذلك سأله:

– كيف أمضيت ليلتك؟

فأجابه الجنرال:

– حسنًا جدًّا.. ما عدا لسعات برغوثين أو ثلاثة قرب منتصف الليل!

صُدِم الدب من الدهشة، حيث أن ضربات فأسه القوية لم تبد للجنرال إلا كلسعات البرغوث!

وفي حالة من عدم التماسك اعترف الدب له بكل شيء، وتوسل إليه لكي يخبره كيف يصبح قويًّا مثله..

أجاب الجنرال:

– لا شيء أسهل من ذلك. وما عليك إلا أن تبحث لي عن قربة لبن.

ذهب الدب، وعاد بقربة لبن. فأشعل الجنرال النار، ووضع القدر عليها بعد أن ملأها باللبن. وعندما بدأت تغلي، قال للدب:

– ضع رأسك هنا.. حتى تصبح قويًّا!

وضع الدب رأسه لأول مرة، فاحترق. ثم وضعها لثاني مرة. وفي ثالث مرة دفعها الجنرال بقوة.. وهكذا تركه ينسلخ على نار مكمورة!

ثم عاد إلى الراعي وجده ساجدًا يصلي، فتناول حجرًا وهوى به فوق رأسه فقتله..

٢٢٢

مر به وهو جالس على حجر بالطريق في منتصف الظهيرة؛ فظنه مسكينًا، فأخرج له مساعدةً، وقال له:

– خذ أعانك الله.

فنظر إليه وقال:

– مش محتاج.. أكرمك الله.

فتعجب الرجل ومضى، ولكنه تعرض للبلاء ليلًا، وإذا به يمر في اليوم التالي والرجل جالس، فاقترب منه وقال:

– شايفك على صلاح وتقوى وأنا أصابني بلاء، فتنصحني بإيه؟

فقال له:

– ٢٢٢..

تعجب الرجل، وقرر أن يقف بعيدًا ويراقبه، وإذا بامرأة تقترب منه وهي تبكي، وتسأله الدعاء؛ فقال لها:

– ٢٢٢..

ظنته المرأة مجنونًا، وظلت تنظر إليه حتى رأت عجوزًا تسأله الصدقة؛ فقال لها:

– ٢٢٢..

فعاد الرجل الأول أدراجه ولحقته المرأة والعجوز واجتمعوا عليه وقالوا له:

– إنت؟ مجنون إنت؟

ضحك الرجل وقال:

– وليه مجنون؟

قالوا:

– كل ما نسألك على حاجة تقول ٢٢٢.. إنت اختل عقلك أكيد؟!

قال:

– لا؛ أبدًا.. بس كل اللي بيعوزه الإنسان عند ربنا.. واللي عاوز اللي عند ربنا؛ يقوم بالليل يصلي ركعتين بسجدتين الساعة اتنين..

مذكرات نطفة

يالها من لحظات رائعة وذكريات جميلة.

كنت هناك أستمتع بالظلام والسكون من حولي ولكنني أشعر بارتياح ليس له مثيل كما بدأت أشعر بالقوة وأن هناك شيئا ما في منتهى القوة يشد يدي ورجلي ويقوم عليه جسدي لا أدري ماهو إلا أنني أصبحت أشعر أنني أكثر قوة.

بدأت أشعر بالنشوى ، أشعر وكأنني أعلو وأرتفع، وكأن شيئا يدغدغ مشاعري ويداعبني، ينتابني شعور بالزهو وأنا أسند رأسي على شئ هين لين ووضعت قدمي على شئ مرتفع

وفجأة بدأت أسمع أصواتا بالخارج ، أصبحوا ينادونني بأسماء لم أعرفها ولكنني كنت أشتم رائحة الدعابة فيها. كانوا يستعجلونني على الخروج إليهم، ورغم أنني أستمتع بما حولي إلا أنني اشتقت أن أراهم وأنظر إليهم.

كانت لهم صور في خيالاتي، ترى هل سأراهم كما أتخيلهم أم ستكون هناك مفاجآت، وكنت أشعر بالامتنان لإرادة قوية شعرت أنها تنشؤني شعرت أنها تملك أمري.

شعرت أنني لاحول لي ولا قوة.. أشعر وكأن طعامي ليس ملكي

أحتاج إليه فيأتيني ولكني لا أعلم له مصدرا.. أشعر أن قلبي يدق وينبض ولكن، لماذا وكيف؟، لست أدري.

شعرت أن هناك قوة جبارة تحركني تسيطر وتهيمن علي دون إرادة مني، وشعرت أنني لا أملك نفسي، من أنا؟ كيف أنا؟! لماذا أنا؟ أسئلة كثيرة راودتني ولا أملك لها إجابة، إلا أنني أشعر ان هناك إرادة خفية أرادت لي أن أكون لماذا وكيف لا أدري. وكنت أسمعهم دائما يقولون انتبهي لما في بطنك؛ أظنهم كانوا يقصدونني،

سمعت الطبيب يقول يوما لأمي: لن أعطيك هذا الدواء تحملي من أجل ما في بطنك.

وراودني الحنين أن أرى أمي كنت أشعر بعطفها علي دون أن أراها وكنت أستمع إلى أبي وهو يلاطفها ويحنو عليها ويقول لها بإذن الله تقومي بسلامة الله وتأتي بولي العهد.

يبدو أنه أنا ولي العهد.

كانوا ينتظرون مجيئي، ولكن كيف سأذهب لهم فأنا هنا أسبح في هذا المكان ويربطني هذا الحبل ولكنني كنت واثقا أنني سألتقي بهم. هم أكدوا ذلك كثيرا.

وفجأة،

وجدت رأسي يرتطم بشدة وأتخبط تخبيطا شديدا، وجدت

الضغط علي من كل جوانبي، وكأن كل من حولي يدفعني، ولكن إلى أين لا أدري، ثم وجدتني أختنق وهناك من يجذبني ولم أتمالك نفسي وأخذت أصرخ بكل قوتي وأبكي عسى أن ينقذني أحد مما أنا فيه، ووجدت نورا يرهق عيني لم أره من قبل، ماهذا، ماذا يحدث لي، وواصلت الصراخ حتى وجدتهم يحملونني مقلوبا ويضربونني على مؤخرتي، ثم رأيتهم يقطعون ذلك الحبل الطويل الذي كان يمدني بالطعام والشراب ثم وجدتهم يغسلوني وفجأة، وجدت نفسي على موعد مع صدر حنون ضمني وربت على كتفي شعرت بشعور جميل لم أشعر به من قبل شعرت بالدفء والراحة كأن قلبي يدغدغني ولم ألبث قليلا إلا وأخذني رجل له هيبة وأخذني وراح يقبلني ثم أعادني مرة أخرى لذلك المكان الجميل الذي أحسست بالغربة تلك الدقائق عندما فارقته.

وكثر الصياح من حولي ولكني لم أعبأ به فقد شملني هذا الحضن تماما حتى الثمالة ووجدتني أذهب في نوم عميق.

أيقظوني من نومي، وفجأة سمعت من ناحية أذني اليمنى من ينادي:

الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله.. أشهد

أن محمدا رسول الله.. حي على الصلاة.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. حي على الفلاح.. الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.

الله ، ما أجمل هذا النداء، ما أجمل كلمة الله، ارتاح قلبي وشعرت بسعادة ليس لها مثيل، ثم وجدتهم يديرونني للناحية الأخري وكرروا النداء من الأذن الأخرى ولكن بطريقة مختلفة:

الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمدا رسول الله.. حي على الصلاة حي على الفلاح.. قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة.. الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.

ما أروع ما سمعته أذني كلام جميل ويشرح صدري ويريح بالي.

ثم فجأة، شعرت بجوع شديد، لم يكن يأتيني هذا الشعور من قبل. أحتاج إلى شئ يدخل في جوفي أشعر باحتياج شديد لملء بطني، ماذا أفعل؟

سأبكي وأعلو بصوتي وأطلب ما أريد بلغتي ولكن هل سيفهمني من حولي؟.. أشعر بالدفء لا زال يلفني، ولا زلت في أحضان أمي تحتويني. أكيد أنها ستفهمني، صرخت، بكيت، علا صوتي.

سبحان الله؛ فهمتني، رفعتني، هدهدتني، ثم وضعت في فمي شيئا غريبا، وسمعت صوتا قويا يقول بسم الله حنكوه جيدا، وتعجبت، ماذا سيفعلون بي؟!

وجدتهم يضعون شيئا حلوا وطعما جميلا في فمي ويمسحون بأصابعهم على فمي ويدخلون هذا الشئ في فمي، ثم سمعت هذا الصوت مرة أخرى يقول كفى نصف تمرة.

لم أفهم ماهو التمر ولكن استسلمت فقد كان الطعم جميل وحلو، ثم وجدت أمي بعدها تضع شيئا آخر في فمي، إنه ينزل ما يملأ جوفي ويرضي ظمأي.

الله ما أجمله من طعم، ترى من أين يأتي؟

امتلأت بطني وشعرت بالسعادة. ونظرت إلى وجه جميل، ملامح أراحتني وأرحت قلبي الصغير. ابتسمت؛ ضجوا من حولي وثاروا.

ضحك وصخب وتهليل، وسمعتهم يقولون: الله أكبر الله أكبر، ما أحلى هذه الكلمات.

ضحك الجميع وتهللت وجوههم وأخذوا يداعبونني ويضعون أصابعهم على فمي ويصدرون أصواتا غريبة. وأنا أكثرت من الضحك؛ فقد شعرت بسعادة لم أشعر بها من قبل،

وظللت على هذا الحال، يكثرون من الضحك حولي ويهدهدوني وتتعالى أصواتهم بتلك الكلمات التي أحب أن أسمعها دائما: الله أكبر ماشاء الله.

وبعد مرور الأيام وأنا لاحيلة لي إلا أن أكب على ثدي أمي عند

الجوع وأتمني أن يأتي أحدهم ليهدهدني ويهزني.

شعرت أنني أستطيع أن أتحرك نحو أشياء من حولي. أريد أن أعرف ماهذا وماهذا، أريد أن أمسك بيدي كل ماحولي، ولكن هل أستطيع أن أضعه في فمي؟

إن أحلى الأشياء عندي الآن هو ما أضعه في فمي من طعام جميل من ثدي أمي، ولكن فلنجرب. وسمعتهم يصرخون كثيرا من حولي وينهرونني عن وضع الأشياء في فمي،

ولكن ماهذا التخلف؟!، دعوني أجرب لأرى هل تصلح هذه الأشياء أن أضعها في فمي أم لا؟

تحولت الحركة إلى عزيمة وبدأت أسرع في الزحف وأستطلع كل شئ حولي، ولم يكن ينتابني إلا أن تتحول ضحكاتهم إلى صراخ في أذني ونهر ثم تحولالأمر إلى ضرب خفيف على يدي.

لماذا يضربونني؟!.. أريد أن أعرف، أريد أن أستكشف هذا العالم من حولي.

صرت أسير على قدمي قليلا. وأصبحت أسرع في الوصول للأشياء. وتحول الأمر إلى مسابقات بيني وبين من حولي جميعهم.

دائما مايعدون من خلفي وتتعالى الصيحات وكأنهم يتسابقون معي في كل شئ، والأدهى من ذلك أنهم كانوا يمنعونني من كل شئ،

ولم يكن ينصفني إلا أمي الغالية؛ دائما ما تتشابك معهم وتحنو علي وتضمني إلى صدرها. ما أجملك يا أمي ما أجملك.

تعلمت القرآن وسمعت قصصا جميلة عن أنبياء الله ورسله. وسمعت قصصا من القرآن ما أروعها. وسمعت عن الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وكنت أتمنى رؤيته، أو أن ألمس كفه اللين وأن أغرق في عطفه وحنانه.

سمعت أخبار أصحابه رضي الله عنهم. كانت قصصهم ترسم لوحات رائعة في صدري.

عرفت حقيقة الكون وأنه فان زائل. ورأيت الناس يموتون من حولي وعرفت أنهم يذهبون إلى الله تعالى في حياة القبور.

كان أبي يصحبني معه إلى المقابر وكان صدري ينشرح وأشعر أن النهاية الطبيعية للبشر هي هناك.

سمعت عن يوم القيامة وما سيحدث فيه. إن أبي سيموت وأمي ستموت. وشعرت بقيضة شديدة حينما تخيلت هذا ولكن الحقيقة أن الكل سيموت حتى أنا.

وذات يوم جلست أتخيل ماذا سيحدث لي؟.. إنني حتما سأموت مثل كل هؤلاء الذين يموتون من حولي.

تخيلت أنني ميت ومن حولي يبكون أحب الناس إلى قلبي علي

ولكني كنت في ملكوت آخر، وهم يبكون وأنا أشعر بابتسامة سيطرت علي بعد موتي،

شعرت بهم يجردونني من ثيابي، وشعرت بهم يسكبون الماء على جسدي وأنا فرحان؛ إنهم يجهزونني للقاء الله. يا مرحبا بلقاء الله.

لفوني في كفني ثم حملوني إلى حيث يصلون علي، وقدموا الإمام فصلى علي أربعا، وشعرت بدعوات الناس تحيط بي من كل جانب، ثم ذهبوا إلى هناك حيث حياة البرزخ،

رقدت هناك في قبري ثم أغلقوا علي باب القبر، ثم شعرت بملكين أقرنين، الوجه أزرق والعيون حمراء، يجلساننني بقوة،

أصابني الفزع في بداية الأمر ولكني سمعتهم من فوق قبري يحثوني على الشهادة ويتكلمون في فضل الله ورحمته ويتكلمون عن النبي عليه الصلاة والسلام وشفاعته،

اطمئن قلبي وآنسوني، ثم فوجئت بالملكين يهزانني من كتفي وهما يسألانني:

من ربك؟

قلت ربي الله لا إله إلا هو.

ثم تركاني،

ثم عاودا الإمساك بي وسؤالي مرة اخرى:

ما دينك؟

قلت ديني الإسلام.

ثم تركاني،

ثم عاودا الإمساك بي وسألاني مرة أخرى:

ماذا تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟

قلت هو محمد بن عبد الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم.

أراحاني مرة أخرى ولكن هذه المرة برفق،

وسمعت صوتا يقول افتحوا لعبد الله بابا ليرى مقعده من النار الذي لو لم يؤمن لكان من نصيبه

أصابني الهلع والرعب والفزع للحظات ولكني سمعت هذا الصوت يقول مرة أخرى:

افتحوا لعبدي بابا ليرى مقعده من الجنة؛

تهلل وجهي وأشرق النور على قبري، وأخذت أنادي بكل قوتي: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، رب أقم الساعة.

تخيلت حياة القبر وأنا أنعم في فضل الله وأشعر بالسعادة وظللت على هذا الحال حتى سمعت صوتا رهيبا، وحينها تذكرت أحداث الساعة وماتبقي منها، ترى ماذا حدث فوق الأرض وأنا قابع هنا تحت الأرض؟

قيام الحرب العالمية الثالثة والتي عرفت بهرمجدون في الكتب الأخرى، وقيام المهدي المنتظر وأخذه البيعة ثم انتصاره على قوى الصليب، ثم ظهور الدجال، واقشعر جسدي حينما تذكرته، ثم نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال، ثم خروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وخروج الشمس من مغربها، ثم الريح الباردة التي تقبض من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم في النهاية الصيحة من إسرافيل.

ترى هل هذه هي الصيحة؟

لم ألبث كثيرا حتى سمعت الصيحة مرة أخرى. شعرت وكأني يلملمني أحد ويجمع كياني، وشعرت بماء يتسرب إلى أنحائي، ثم شعرت بالأرض تنشق وأخرج منها برأسي، لا أرى ولا أسمع،

ثم فجأة شعرت والروح تدب في جسدي، ونظرت إلى الأرض فوجدتها وكأنها سطحت ولا يوجد عليها بروز واحد، ومناديا ينادي: هلموا إلى لقاء الله، هلموا إلى لقاء الله.

تجمعنا حشود وراء حشود والكل يقف مرعوب في خشوع شديد ويهمس في صوت خافت

أين ربنا؟

إن الله سيحاسبنا. ودنت الشمس من الرؤوس، وراح الناس كل

بحال يدفع عن نفسه العرق من شدة الحر؛ فرايت أناسا وصل بهم العرق حتى كادت تغرق فيه، وبعضهم حتى صدره، وبعضهم حتى حقويه، وبعضهم حتى ركبتيه، وبعضهم حتى الكاحلين، وبعضهم نفض العرق تقريبا من عليه،

وتعجبت عجبا شديدا؛ سمعت عن هذا من قبل ولكن لم أكن أتخيل أنه بهذا الشكل، ثم سمعنا جلبة رهيبة وضوضاء، ثم أخذنا يسأل بعضنا بعضا حتى جاءنا الخبر من أولي الفهم والعلم؛ إنهم ملائكة السماء الأولي وقد بهر نورهم كل أهل الموقف،

وتساءل الناس: أفيكم ربنا؟

قالوا: لا نحن ملائكة السماء الأولى.

واصطف الملائكة على جانب الموقف، ثم حدثت نفس الجلبة والضوضاء، ونزل ملائكة أشد نورا ففزع الناس،

وتساءل أهل الموقف: أفيكم ربنا؟

قالوا: لا.

واستمر الملائكة في النزول حتى نزلوا جميعا،

وفجأة؛ حدثت واقعة انخلعت لها الألباب؛ تطايرت صحف الأعمال، وذهبت كل صحيفة لصاحبها؛ فآخذ كتابه باليمين، وآخذ كتابه بشماله، وبقي الناس في حيرة وخوف ووجل، حتى استقرت

كل صحيفة بيد صاحبها؛ فاستبشر المؤمنون بقرب النجاة عندما استقرت صحفهم بأيمانهم، بينما ازداد الكافرون والمنافقون غمًّا إلى غمهم حينما استقرت صحفهم بشمائلهم جزاءً وفاقًا،

وبعد أن أمسك كل واحد كتابه، بدأوا بفتحه، وكل منهم يقوم بقراءة ما كتب فيه؛ فيشعر بأنه مراقب ،فأفعاله كلها مكتوبة، ومحسوبة، ولا مفر منه، ثم العقاب على الأفعال التي في الكتاب، وكل حسب مقدار الذنوب، بعدها وضع الميزان حيث توزن جميع الصحف بالميزان الذي وضعه الله، والذي ترجح كفة حسناته يدخل الجنة،

وبدأ السير على الصراط ، حيث سار الرسول صلى الله عليه وسلم، ومرت أمته، ينقسم الناس لأطياف وأزواج؛ بمعنى أن كل فئة مع مشابهيها؛ فالظلمة مع الظلمة، والمسلمون مع المسلمين، ثم يسير الناس بما يعطون من الأنواع؛ فالمؤمن يعطى نوراً يسير به على الصراط إلى الجنة، أما المنافقون لا يعطون النور؛ فيسيروا والنار أمامهم ؛فيسقطون فيها والعياذ بالله .

وجلست أتخيل نفسي وأنا أعبر الصراط. انتابتني قشعريرة شديدة هل سأستطيع المرور فوقه وهو كحد الشفرة؟

شئ عجيب حقا. تخيلتني أعبر وكلاليب النار تتخاطفني،

وتخيلت أنني سأدخل النار بمعاصي الكثيرة، ودخلت النار وجدتني اتقلب في طبقات حرارتها شديدة ويذوب مني الجلد وأصرخ مع من يصرخون، ولكنني كنت أشعر أنني مميز عمن حولي، لقد كنت أسجد لله تعالى، وتحسست مكان السجود فوجدته كما هو لايحترق؛ انتابني أمل كبير أن هناك أمر ما، ولكن متى؟ إنني أصرخ ليل نهار، وسمعت من معي من النار يدعون مالك ليتحدثوا إليه وجاءهم مالك؛ قالوا له: يا مالك ليقضي علينا ربك.

غاب عنهم مائة ألف سنة منهم اليوم بألف سنة من عددنا، ثم جاء وقال لهم: إنكم ماكثون. فاشتد الصراخ وزاد العويل، ويتألمون فقال لهم مالك: اخسئوا فيها ولا تكلمون.

أصبحوا يكتمون ما فيهم من الألم حتى تحمر الخدود وتذوب ثم تتبدل الجلود، وبعد فترة لا أعلم عددها وجدت ربي يأخذ من النار بيديه كثيرا من أهل النار وأنظر إلى نفسي لست فيهم،

وأنا أتألم ألما ما تألمته من قبل، ولكن ينتابني الأمل أن أكون من شفعاء الله الذين يأخذهم بيديه سبحانه وتعالى، حتى جاء يومٌ وقد تفحمت تماما، ولم يبق مني إلا موضع السجود، وأخذني ربي خارج النار وغسلني سبحانه، وأزال عني التفحم، وسألني سبحانه.

وجلست أتخيل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"عن عبد الله بن مسعود رضي الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين؛ فترفع له شجرة؛ فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه؛ فيدنيه منها؛ فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى؛ فيقول: أي رب ادنني من الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؛ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه؛ فيدنيه منها؛ فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين؛ فيقول: أي رب ادنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها، وربه عز وجل يعذره؛

لأنه يرى ما لا صبر له عليه؛ فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألونني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين، حين قال العبد: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر" أخرجه مسلم.

وجلست أتخيل نفسي وقد دخلت الجنة.

استقبال من الولدان المخلدين من على باب الجنة كأنهم لؤلؤ منثور وجوههم مضيئة ويشع منهم النور، وأخذوني من يدي وهم يقولون:

هيا ياعبد الله فإن زوجاتك من الحور العين ينتظرنك، وتوجهت إلى قصر أخذ بلبي شكله من الجمال لبنة من فضة ولبنة من ذهب والدرج يضئ ضوءا جميلا، وإذا بنور يضئ من على الدرج يذهب بعقلي من الجمال والحسن فيشق لفرح صدري وأبتهج ابتهاجا لم أره في حياتي،

وتساءلت هل هذا هو ربنا؟

قالوا لي :لالا؛ إنها وصيفة الحور العين جاءت لتستقبلك وتأخذك إلى زوجاتك من الحور العين؛

قلت :سبحان الله، ودخلت إلى قصري تحملني هالة من السرور والبهجة، وإذا بنور لم أرَ مثله قط، وجمال ساحت منه روحي ورقص قلبي، جمال لم أره من قبل، ونور أضاء أرجاء المكان ومكثت أستمتع بحياتي في قصري،

وإذا بمنادٍ من الملائكة ينادي: هلموا إلى لقاء الله،

وفجأة تبدلت ثيابي دون أن أشعر بثياب من سندس وحلي من الياقوت، وخرجت من قصري، ووجدت أناسا كثيرين يخرجون من قصورهم، مضيئة وجوههم، ونادت الملائكة على سحب المسك فأزلت علينا مسكا لم أشتم في حياتي أجمل منه رائحة، ثم أمرت الملائكة أن يتوجه الجميع إلى لقاء الله تعالى،

ونادى رب العزة -تبارك وتعالى- علينا وقال: ياعبادي ألم أنعم عليكم؟

قلنا: بلى ياربنا.

فيأمر ربنا -سبحانه وتعالى- بالطعام والشراب من أبهى وأحلى الأطعمة، وينزل العطر علينا أروع من سابقه،

ويقول ربنا: ياعبادي هل رضيتم؟

فنقول: ومالنا يارب لانرضى وقد تفضلت علينا وأنعمت علينا؟

ثم ينادي رب العزة على داوود عليه السلام ويأمره أن يقرأ القرآن؛ فنسمع القرآن بصوت داوود عليه السلام فما سمعنا أطيب ولا أطرب لنفوسنا وقلوبنا مما سمعنا.

ثم يأمر ربنا -تبارك وتعالى- بفاصل من الطعام والشراب مما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين،

ويقول ربنا: ياعبادي هل رضيتم؟.

فنقول: ومالنا لانرضى ياربنا وقد أنعمت علينا وتفضلت علينا؟.

فينادي ربنا -جل في علاه- على نبينا محمد -صلى اللهعليه وسلم- ويأمره أن يقرأ القرآن، فما سمعت القلوب والآذان أروع مما سمعنا من صوت الحبيب المصطفى -عليه الصلاة والسلام-

ثم يأمر ربنا سبحانه بفاصل من الطعام والشراب والطيب؛ حتى يبتهج أهل الموقف، وإذا بأهل الموقف يفاجأون بربنا -تعالى قدره وجل شأنه- يقرأ علينا القرآن بصوته،

الله الله الله، تمايلت القلوب، وأطربت الآذان وتهيجت النفوس مبتهجة ابتهاجا لم يكن مثله نظير وما وجد الناس أروع ولا أحلى ولا أجمل مما سمعت آذانهم،

ثم يتجلى ربنا جل في علاه وتعالى قدره وشأنه وتقدست أسماؤه على أهل الجنة؛ فنرى ربنا سبحانه وتعالى، نعم نراه جل في علاه.

سبحانك سبحانك سبحانك، سبحان من أضاء الكون بنوره، وخشعت المخلوقات لعظمته.

وهنا يعجز القلم عن الوصف، وتتوقف الأنامل عن السرد؛ فلا متعة، ولا جمال، ولا حلاوة، ولا ولا ولا.

سبحانك يانور السموات والأرض سبحانك.

نبذة عن المؤلف

- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو رابطة الزجالين.
- عضو مؤسس بنادي أدب القلج.
- عضو رابطة الأدب الحديث (جماعة أبوللو).
- عضو الجمعية المصرية لرعاية المواهب.
- عضو دار الأدباء.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي.

إصدارات المؤلف

- (العذراء التي وطئها كل الرجال) رواية، عن دار الفيروز.
- (عتاب الكواكب) رواية، عن دار الفيروز.
- (ثرثرة فوق الشات) رواية، عن دار الجندي للنشر.
- (شيء في كلبي) مجموعة قصصية.
- (كرامة من زجاج) رواية، عن مؤسسة الحسيني الثقافية.
- (الإنس والجل) مجموعة قصصية.
- (إبراهيم الخليل وذريته عليهم السلام).
- (الراقصة والزبال) مجموعة قصصية.

الفهــــرس

إهداء ٣
مقدمة ٤
وداع في الإسكندرية ٩
الجميلة والكبرياء ١١
تمثال برديسي ١٤
السياسي والسروال ٢٦
الراقصة والزبال ٣٨
وعد شرف ٤٨
جريمة شروع في الأمل ٥٨
فراق ٦٦
الجنرال والراعي ٦٧
٢٢٢ .... ٧٤
مذكرات نطفة ٧٦
نبذة عن المؤلف ٩٤
إصدارات المؤلف ٩٥
الفهرس ٩٦